

اقرا

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٤٣]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

مامی سے سلام

انی صاعِدہ ..

حیاء و مذكرات شبابیہ
مرہفۃ الإحساس - شریۃ الألم



دارالمعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب
من الحياة العقلية التى نعيشها .

طه حسين



نادية : عشرون سنة . . والحياة رحلة
استكشاف مستمر معظم ما يستكشف فيها أليم . . ! !

إني صاعدة

أماه . . ما أحلى اللقاء !
إني أسمع الصوت البهير
وإشارة الملكوت نحوى والنفير
أماه . . هذا الضوء من ربى القدير
ونداؤه : ليلي هبى من نوم صغير
ليلي . . اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . ويحانب الرب الغفور
أماه . . إني صاعدة . . أماه إني
في حبور
أماه . . لا تبكى . . ففى جناته
أحيا وأطير

” نادية “

(من مذكراتها الخاصة — سنة ١٩٦٤)

إني صاعدة

إن اللوحة الجميلة لا تبدو على
حقيقتها إلا إذا نظر إليها الإنسان من
بعيد .. وقد ابتعدت عنا "نادية" أشد
ما يكون الابتعاد . . فكانت رؤيتنا
لها واضحة أوضح ما تكون الرؤية . .

إهداء . . .

إلى أمها . . .

إلى « شجرة الحب » التي لا
ينحسر لها ظل . ولا ينشد لها زهر . .
ولا ثمر . إلى التي استطاعت - بجماع
فضائل الأم .. وتضحياتها . وشجاعتها ،
وإيمانها وصبرها - أن تصبح تجسيدا
حيا ، وباهرا ، ومذهلا ، للقول المأثور :
« الجنة تحت أقدام الأمهات » .

نعم « الأم » ... نهرا فياضاً يغدق
الحب بغير حساب . . ونعم « الجنة »
جزاء لهذه « الأم » الكبيرة . . الكبيرة . .
التي أعطت الحب - أنقى الحب -
للحب في ذاته . . وأعطت التضحية
- أغلى التضحية - للتضحية في ذاتها
بغير تطلع إلى ثواب ، وبغير خوف
من عقاب .

إليها . . أقدم هذه الصفحات من
حياة زهرتنا الحبيبة « نادية » . . . وهي
صفحات بعضها منها ، وبعضها عنها .

لعلها - جميعاً - أن تنزل برداً وسلاماً
 على قلبها الجريح الذي أعلم عمق
 جرحه ، لأنه نفس جرح قلبي . لكنه ،
 على شدة عمقه وإيلامه ، لن يمز
 بالإيمان - على الشفاء . .

حلمى سلام

مقدمة

بقلم : الأستاذ فتحى رضوان

”مارى بشكر تسيف“ .

ذكرت هذا الاسم ، فيما أهم بالإخلاد إلى النوم . . بعد يوم مملوء بالجهد النفسى . . والعناء العصبى . . وحاولت أن أتابع الحواطر التى يبعثها هذا الاسم فى رأسى ، فإذا هى تنقطع كما ينقطع المحيط الواهى فى يد ملولة لا تقوى على الصبر .

ونسيت الاسم . . ولم تعد خواطره تفد إلى ، ونسيت معه هذه الصفحات التى أقدم لها بهذه السطور . . وفجأة ، وعلى غير انتظار . . وبلا تمهيد ، إذا باسم ”مارى بشكر تسيف“ يعود إلى . . وإذا به يعود إلى فى اللحظة نفسها التى كان قد طرق فيها باب ذاكرتى منذ أيام لم تكمل الأسابيع .

لقد ذكرته ، وأنا أهم بالإخلاد إلى النوم . . فإذا بالنوم يهرب من عيني . . وإذا بى أشد ما أكون تنبهاً . . وإذا بى أسير فى هرولة إلى مكان ما من المكتبة . . وإذا بيدي تمتد إلى موضع منها لتأخذ كتاباً أفتحه ، فأرانى أمام مقال عن مذكرات ”مارى بشكر تسيف“ . وأخذت الكتاب فعبرت المقال من أوله إلى آخره فى سرعة خاطفة ، وكأنى أود أن أقطع طريقاً قبل أن يلحق بى لاحق !

وفرغت من المقال فى دقائق . . ثم وضعته إلى جانبي وأنا فى حال لا أستطيع أن أصفها . . حال فيها حزن ، وفيها راحة ، وفيها رضى

عميق ، وفيها تمرد محكوم ومضغوط عليه . ورحت أسائل نفسي :
هل تعارفتا . . . ؟ هل عرفت الشابة المصرية التي ودعناها كأندى
ما تكون زهرة من زهرات البشر . . . وأنتى ما تكون نفساً من نفوس
الناس - هل عرفت الشابة الروسية التي عاشت ، وتألّت ، واستسلمت
للأحلام ، وتنقلت كالنحلة بين الزهور . . ؟ !

لقد عاشتا نفس العمر : عشرين عاماً . . ثم عدداً آخر من الأشهر .
وقائتا نفس الكلام . . وكانت لهما نفس المواهب . فهل تعارفت
نفساهما على البعد ؟ أو أنهما جاءتا إلى دنيانا ، وانصرفتا عنها دون
أن يقوم بين قلبيهما رباط يجمعهما ؟

إن الأولى - وهى الروسية - جاءت وذهبت قبل أن تولد الثانية ،
بل قبل أن يولد أبواها ، بل ربما قبل أن يولد جداهما . فقد ماتت
”مارى“ فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، فى حين
ماتت ”نادية“ فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ - ولكن . .
ما أضعف الزمان حاجزاً بين النفوس ، وما أضعف المكان فاصلاً بين
القلوب . فالنفوس لا تتخاطب ، والقلوب لا تتناجى ، كما تتصل
وتتحدث الألسنة . . وكما تتخاطب وتتقارب الأبدان .

إن الذين ذهبوا ، منذ عشرات القرون ، يعيشون معنا بما قالوا . .
وبما تركوا من شعر ، وفكر ، وفن . . . إنهم يؤثرون فينا كما لا تؤثر
فينا آلام اليوم وأوجاعه ، ومسراته ، وأفراحه .

فما أعمق القلب الإنسانى من كنز للمشاعر ، والعواطف ، والأفكار !!
وما أعمق النفس الإنسانية من بئر للأحلام ، والخواطر ، والصور !!
» فمارى بشكرت سيف « الروسية التى ولدت فى روسيا . . وعاشت ،
وماتت فى باريس . . بكل ما فكرت فيه ، وخافت منه ، وتاقت إليه . .
كانت شقيقة » نادية حلمى سلام « بكل ما خطر على بالها ، وساور



خيالها . وأهمها : وأهمها . وأحزنها . وأفرحها . ! !
صحيح أن « ماري » كانت ثمرة مجتمع أغنى من مجتمع « نادية »
ثقافة وفناً . . وأن الأولى كانت أكثر استجابة لأشواق البدن . وأعظم
تمرداً على قيود الروح . . في حين كانت الثانية راهبة من راهبات التصوف
المتدقق من ينابيع قلبها الشرقي المسلم . . فهي لا تلعن البدن . ولا تسب
الدهر ، ولا تفيض روحها بالتشاؤم القائم . ولكن . ما أتفه الفارق بين
القبالب . . فالإنسان يكون شاعراً دون أن ينظم بيتاً واحداً . . ويكون
مصوراً دون أن يمسك الفرشاة مرة واحدة . . ويكون خطيباً فصيحاً
دون أن يفتح فمه بكلمة . إن الشاعر ، والكاتب ، والمصور ، والخطيب ،
هم أولاً — وقبل كل شيء — نفوس تحس ، وتتوق إلى التعبير عن نفسها . .
وقد يكون أحسن ما تتركه للناس هو ما تعجز عن التعبير عنه بالكلمة :
أو باللحن ، أو باللون . . فما حرك نفوس البشر شيء كما حركها الكلام
الذي لم يقله الشعراء ، والكتاب ، والخطباء . . . الكلام المقروء بين
السطور . . الكلام الغامض الذي لم ينجل بعد . وأحسن الصور
ما رآه الناس خلف صور الفنانين الكبار . . يرونها بالبصيرة ،
لا بالبصر . . ويحسونها بالوجدان . وإن كانوا لا يلمسونها بالأيدي .
ومن هنا ، كانت « نادية » . . و « ماري » شقيقتين . وإن عبرت
كلتاها عن نفسها بأسلوب مختلف . ولكن ، يكفي أن تقول كلتاها
عبارة واحدة مشتركة . . . عبارة غنية فياضة . . حتى تعرف أنهما
زهرتان في بستان واحد .

» » »

ولقد تركت لنا كلتاها مذكرات . . فأصبح في مقدورنا أن ننقل
النظر بين هذه المذكرات ، وتلك . لنرى أنهما — « نادية » . و « ماري »
لم تشابه في السن التي تركتا فيها دنيانا . . ولا في المذكرات التي خلفتها

لنا كل منهما فحسب ، ولكن . . في الخواطر ، والأحاسيس : والمشاعر .
وإليك هذا الذي قالته « ماري » بعد أن قرأت قصة الاستيلاء
على « طروادة » في ملحمة « هوميروس » .

● « لم تترك مأساة حديثة . .
ولا قصة مهزلة مما كتب « دوماس » ،
أو « جورج صاند » في نفسي ذكراً
باقياً . . ولا أثراً عميقاً صريحاً كالآثر
الذي تركه فيها وصف الاستيلاء على
« طروادة » . فإني أشعر أنني شهدت
هذه الفضائع . . وسمعت تلك الصيحات
ورأيت النار وهي تشتعل . وإني كنت -
وأسرة بريام - مع أولئك التعساء الذين
كانوا يختبئون وراء محراب القرايين التي كانوا
يتقربون بها لآلهتهم لتكشف عنهم النيران
اللاتهية في مدينتهم ، ولا تسلمهم إلى
أعدائهم . . وأينا لا نعروه هزة حين
يصل من قراءته إلى طيف كروز؟ »

ثم إليك ما قالته « نادية » ، وقد فرغت من قراءة قصة حياة
« فان جوخ » :

● « إني لعمرى ما تجاوزت مع
شيء قراءته ، قدر تجاوزني مع هذه الصفحة
من حياة تقطر أسى ومرارة . . فقد
أحسست بالكره الشديد ، بل بالقت

« بلوجان » ، فقد أحسست ، وأدركت .
 أن هذا الملعون كان هو السبب في أول
 نوبة أصابت « فان جوخ » . لقد شعرت
 بالرعدة تسرى في أوصالي . وبالحوف
 يزلزل كياني مع كل نوبة كانت تصيبه .
 وتمنيت لو أني كنت بجانبه . فلربما
 كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً ..

ولعل هذين الاقتباسين قد بينا ما أقصده من أن الفتاتين كانتا
 روحين توأمين . على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى اختلاف الجو .
 والبيئة ، والظروف . هذه تقرأ « هوميروس » الإغريقي . . . وتلك تقرأ
 عن « فان جوخ » في الفرنسية . . . ولكنهما تتأثران بما تقرأن تأثراً واحداً .
 وتعبيران عن تأثرهما بعبارة تكاد تكون واحدة .

● « فاري » تقول : « إنها لم تتأثر بشيء بقدر ما تأثرت بقراءة مأساة ،
 أو فاجعة الاستيلاء على طروادة » .

● و « نادية » تقول : « لعمرى ما تجاوبت مع شيء قرأته ، قدر
 تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة « فان جوخ » » .

● و « ماري » تقول : « ينجيل إلى أنى شهدت هذه الفظائع ، وسمعت
 تلك الصيحات ، ورأيت النار وهي تشتعل !! »

● و « نادية » تقول : « لقد شعرت بالرعدة تسرى في أوصالي ،
 وبالحوف يزلزل كياني مع كل نوبة من نوبات « فان جوخ » » .

حساسية مفرطة . . . وقدرة على التعبير فائقة . . . ونسيان للنفس
 مع الصور المتخيلة ، والاستغراق فيها ، والاندماج معها .

هذا الخيال الغنى المديد ، يعبر عن نفسه عند كل منهما بطريقته الخاصة .

- « فمارى »، تقول : « آه . . . لو كنت ملكة » . . . ثم تقول : « أريد أن أكون قيصرًا . . . أو أغسطس . . . أو ماركوس أورليوس . . . أو نيرون . . . أو الشيطان . . . أو البابا ! ! »
- أما « نادية »، فتقول : :

« أحس أنني أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . . . ولكن ، ماهو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله ؟ ليست عندى أية فكرة عنه .
« فأحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون « ناسكة » . . . وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعاً . . . وأحياناً أتمنى لو أنى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . . . أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها » .

وكلتا الفتاتين تغفو فى صحوة النهار ، وتفيق كل منهما من غفوتها ، وتتساءل : « ماذا حدث ؟ »

تقول « ماري »، فى مذكراتها فى يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ :

- « إننى أسعل الوقت كله برغم

حرارة الجو . . وقد أخذتني سنة من
النوم على المتكأ عصر اليوم ، فرأيت
نفسى نائمة وإلى جانبي شمعة موقدة ..
أترانى أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » .

وتقول « نادبة » ، فى يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٢ :

● « يوم رائع من أيام الربيع ..
رائحة الورد تملأ الجو من حولى .. ولكن
على الرغم من هذا اليوم الرائع من أيام
الربيع . . . ومن رائحة الورد التى
تعبق الجو من حولى ، أشعر بحزن عميق
يحتاجنى . . لماذا ؟ لا أدرى . . يخيل
إلى أننى أبحث عن شىء ضائع » .

تلك تستيقظ لتساءل : « هل أموت ؟ » . . وهذه تنبهه لتقول :
« هل ضاع منى شىء . . وماذا يكون ؟ » . . وحينما يتساءل الإنسان :
« هل ضاع منه شىء » هو لا يدريه . . يكون هذا الشىء ، عادة ،
هو الحياة نفسها . . ! !

والموت لفظ يتردد فى مذكرات « ماري بشكر تسيف » . . وفى
مذكرات « نادبة سلام » ، على السواء . . وإن كان ذكره يأتى بنغمتين
جد متباينتين ، فإنهما ، فى الواقع ، تصدران عن فكرة واحدة . .
وعن إحساس واحد .

ويجب ألا غنسى أن « ماري » كانت مصدورة ، وأن مرضها الشديد
كان يحمل إليها مع كل نسمة هواء تدخل إلى رثتها المريضتين اللتين
تأكلهما العلة بلا رحمة ، إنذاراً بالموت . . وإشارة إليه . . وتحذيراً منه .

فى حين كانت « نادىة » - وهى تكتب مذكراتها - مملوءة بالصحة .
فياضه بالحىوة .

● تقول « مارى » : « أترانى أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك »
ثم تضيف : « والموت كلمة سهلة حين نقولها ، أو نكتبها . لكن التفكير
فى أمرها . والاعتقاد بأن الإنسان يموت عاجلا . . هل ترانى أعتقد
ذلك ؟ إننى أخشى » .

هذه الخشية تتردد أصداؤها أيضاً عند « نادىة » ، فهى تقول فى
مذكراتها فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ : « إننى أشعر بالخوف من
المجهول الذى تربص « لفان جوخ » ، يؤرق مضجعى » .
وكل منهما كانت تسمع الأصوات . والهواتف ، التى يجسدها لها
خيالها .

تقول « مارى » فى مذكراتها فى أول يونية سنة ١٨٧٦ :

● « الساعة . . وأنا خارجة من
غرفة زينى مر بى طيف مفزع ،
فقد رأيت إلى جانبي امرأة فى ثوب أبيض
طويل . تحمل النور فى يدها . .
وتنظر إلى وقد أحنت رأسها على مثال
طيف أساطير الألمان » .

وتقول « نادىة » فى مذكراتها ، فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ ،
الى نقلنا عنها من قبل :

● « لقد شعرت بالخوف وبالرهبة
تهددنى . فالمخاوف . والهتافات التى

كانت تنادى "فان جوخ" تناديني أنا
أيضاً . . . إني أسمعها سمعاً حقيقياً
لا خيالاً .
* * *

وتتوارد مشكلة "الألم" الفتاتين الصغيرتين اللتين منحهما الله
إحساساً مرهفاً ، وشعوراً بأحزان الآخرين ، وآلامهم ، فوق ما تطيقه
النفس الإنسانية الغضة .

فتقول "نادية" :

● « لماذا حكم على الفنانين بالتمرغ
في أحضان الجوع والألم ؟! لقد وضح
الجواب من حياة "فان جوخ" .
وهو أن الألم النابع من أعماق الفنان
نفسه ، أو الذى ينعكس عليه من
أعماق الآخرين ، هو الذى يزيد
من رقة إحساسه » .

● أما "مارى" فتقول : « لماذا يخلقنا الله لتألم ؟ . . وإذا كان
الله هو الذى خلق العالم . . فلماذا خلق الألم ؟ ! » .

إن النفس الرقيقة ، الحساسة ، التى لا تدع شيئاً يمر بها دون أن
يترك على لوحها الشفافة أثره البالغ العميق ، هى نفس تصاب — عادة —
بالسأم والملل ، لأنها لا تكف عن الركض ، من الصباح إلى المساء ،
وراء كل صورة ، وخاطرة ، وفكرة . . . ووراء كل حدث مفرح
أو مؤلم . . ثم ترى فى النهاية . أنه ليس من وراء كل هذا شيء باق . .

أو شيء مفهوم . . أو شيء يستحق العناء .

* = *

● ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : « في أوقات الفراغ » عن " ماري بشكر تسيف " نقلاً عن كتاب : « الحياة الأدبية في باريس » للكاتبة الفرنسية " أناتول فرانس " :

« كان رأسها مخزناً تختزن فيه مختلف الكتب والروايات من غير ترتيب . وكانت دائبة السباحة : تذهب من نيس إلى روما .. ومن روما إلى باريس . . ومن باريس إلى بطرسبرج ، وفيينا ، وبرلين . وكانت لا تستقر أبداً ، فقد كانت السامة تتولاها أبداً . . . وكانت ترى حياتها خلاء » حتى كانت تقول : في هذا العالم كل ما ليس أليها سخيف . وكل ما ليس سخيفاً أليم ! »

ولكن " نادية " لا تشوب نفسها هذه المرارة التي يبعثها الألم . . . وهي ليست قلقلة قلق الشك الصارخ ، بل هي قلقلة قلق القلب الباحث عن الإيمان . لذلك يحى تعبيرا عن " السأم " أحلى مذاقاً ، وأجمل وقعاً ، وألطف نبرة : في مذكرتها عن يوم ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ - نجدها تقول :

● « إنني أفكر الآن في أشياء كثيرة أراها نصيبني بالملل . . فالذهاب إلى المدرسة أمله . . والبقاء بالبيت أمله .

والروتين بكاد يقتلنى . . وأعتقد أننى
لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأننى
أموت موتاً بطيئاً !! »

الرغبة فى الموت هنا . . والخوف من الموت هناك . . كلاهما شعور
واحد ، وإن ظهرا كالتقيضين . . فالتشبث بالحياة حب لها ، وحرص
عليها . . والاستخفاف بالحياة . . لا يصدر إلا عن فرط حيوية .
فالضعاف من الناس ، الذين لا يجدون فى الحياة ما يثيرهم ، ويحرك
خوابطهم ، ويلهمهم ، لا يرد لفظ الموت على ألسنتهم قط . . ذلك
لأنهم موفى إلى الحد الذى لا يشعرون معه بأنهم أحياء !!

« « «

ومأساة المرأة الذكية ، المتوقدة ، الطموح عندما تصطدم بمشكلة
الزواج . . هى مأساة حقيقية . . لأن المرأة الذكية هنا ليست أنثى
فحسب ، وإنما هى أنثى مدركة لوجودها . . وليس من السهل عليها
الاندماج والفناء اللذان يتطلبهما الحب ، ثم الزواج . تقول « نادية »
فى مذكرة التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ :

● « كنت اليوم أفكر فى الزواج . .

ما هو ؟

« إنه فى نظرى ليس نهاية الآمال

بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً

قاتلها !!

« ولنأخذ حالتى مثلاً : فتاة شابة .

تعشق الخيال ، وتعشق الكتابة ، وتعشق

القراءة ، وتعشق الموسيقى . . ماذا

يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة لو
أوقعها القدر في « مصيدة الزواج » ؟

ويزداد شعور « نادية » بقسوة مصير المرأة . . . وتقارن بينها وبين
الرجل . . . فتقول :

● « إن الرجل يستطيع دائماً أن
يعيش حياته . . . يستطيع ، لو أراد ،
أن يخصص حياته لرغباته : وآماله ،
واختياراته . . . أما المرأة ، فإنها —
برغم كل شيء ... وبرغم كل ما وصلت
إليه — ما تزال مخلوقاً ضعيفاً ! ! » .

ولم نتحدث « ماري » عن الزواج كنظام . . . إلا أنها تحدثت عن
الزوج المرشح لها : فقالت :

● « لو أصبحت زوجته . . . إذن
لقضيت على ثروته ، ومتاحفه ، وقصوره .
فإن لي ، من الطمع ، والكبرياء ،
مالاً حذله : والعجيب أن يحب شخص
مخلوقاً ذاك شأنه ، لا شيء إلا لأنه
لا يعرفه » ! !

« فماري » ، تصل — بطريقتها الخاصة — إلى نفس النتيجة التي تصل
إليها « نادية » ، بطريقتها الخاصة أيضاً . « نادية » تعلن أن الزواج كله
بالنسبة لها مستحيل . . . و « ماري » ترى أن زواجها من هذا الذي
أظهر لها الحب مستحيل . . . وتسخر من إنسان يحبها : وهو لا يعرفها . .

وتضيف : « أواه لو عرفت هذا المخلوق ... » ؟ فهي : على فرط حساسيتها وحبها للحياة ، لا تتحدث عن الحب حديث العشاق الواهين . . ولا تحرق الورق بحرارة آهاتها . . فهي تحب شيئاً أكبر ، وأوسع ، وأعلى . . . إنها تحب الحياة كلها حباً عميقاً وعنيفاً .. وتدفع عن نفسها الموت ، وتصرخ وهي تراه يدهمها :

● « إننى أرى الحياة طيبة . فهل يظن ذلك أحد ؟ وأجد كل شيء فيها طيباً ولذيذاً . . . حتى الدموع ، وحتى الألم . . . إننى أحب أن أبكى ، وأحب أن أياس . . . أحب أن أكون حزينة آسية . . . إننى أحب الحياة على الرغم من كل شيء !! » .

ويقول مؤرخو حياة « ماري بشكر تسيف » إنها — فى سنة ١٨٧٧ — استبدت بها شهوة واحدة وقفت لها كل وجودها . تلك هى شهوة « التصوير » ، وجمعت له كل كنوز ذكائها المشتتة . . واجتمعت عنده كل آمالها فى المجد ، ولم يبق لها من حياتها إلا غاية واحدة . . هى أن تكون « فنانة كبيرة » .

أما « نادية » ، فإنها تقول فى مذكراتها : « إن هوايتها هى القراءة . . ثم القراءة . . ثم القراءة » .

وتكشف « نادية » عن سر عشقها للقراءة ، فتقول :

● « أما الذى يزيدنى تعلقاً بها فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى أن أحقق فيه . فإن هوايتى . . بل أمنيى . . أن أصبح كاتبة مرموقة . والاطلاع . .

المزيد من الاطلاع . . هو الوسيلة

الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ؛ ما دامت

الموهبة لا تنقصنى - وهى لا تنقصنى .

هذه تريد أن تكون « مصورة عظيمة » . . . وتلك تريد أن تكون

« كاتبة عظيمة » وكلتاها تبذل كل شيء فى سبيل تحقيق هذا الأمل ،

وتلك الأمنية .

* * *

ويقول مؤرخو حياة " مارى بشكر تسيف " أيضاً : « إن شيئاً ما كان

يقف حائلاً بينها وبين شرور العالم البوهيمى الذى كانت تحياه بقوة

وتطرف . فلقد كانت تحياه بفكرها ، لأنها كانت تؤمن بأن فى " الفكر "

شيئاً أكبر من العاطفة نفسها . . . عاطفة أعمق من العاطفة ، فهى

على الرغم من انفصالها الحقيقى عن العالم البوهيمى الذى كانت تعيش

فيه . . وعلى الرغم من ترفعها الرومانسى عن الأحداث اليومية العابرة ،

كانت تعيش فى قلب عصرها . . بل فى البؤرة المحرقة منه . »

وكذلك كانت " نادية " . . . لقد كانت تؤمن « بالفكر » إيماناً

لا حد له . . كانت تؤمن به كقيمة عظمى . . قيمة أكبر من كل

القيم . . هى تكشف لنا فى مذكرة يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ ،

عن هذا الإيمان العظيم « بالفكر » كقيمة أكبر من كل القيم - فتقول :

« إننى أحب كثيراً أن أبقى

وحدى . . أفكر لنفسى . . وأتكلم

مع نفسى . . إن التفكير يكاد يقتلنى .

لكننى - وهذه هى مشكلتى -

لا أستطيع أن أعيش بغيره . . إن

" التفكير " هو حياتى .

لقد كانت "مارى" - كما يقول مؤرخو حياتها - تعيش فى قلب عصرها، بل فى البؤرة المحرقة منه - وهذا بدوره، ما ينطبق بالضبط على "نادية". فعلى الرغم من أنها تقول فى مذكراتها : «إنها تحب أن تبقى وحدها .. تفكر لنفسها، وتتكلم مع نفسها»، نجدها - تماماً كما كانت تفعل "مارى" - تعيش فى قلب عصرها .. وفى البؤرة المحرقة منه .

ولست أعرف «بؤرة محرقة» أشد إشعالا لوجدان الإنسان العربى - فى الفترة التى كان وعى الصغيرة "نادية"، وعقلها يتفتحان على مشكلات عصرها - من «ثورة الجزائر»، وما كان يحدث فيها .. وما كان يحدث لها، ومنها .. !

وفى قلب هذه «البؤرة المحرقة» .. كانت "نادية" تعيش بفكرها كله . فراها تمنح «ثورة الجزائر» من ذاتها، كل الحب .. وكل الحماسة .. وكل ما تقدر عليه من عطاء . فهى ، فى المدرسة الفرنسية التى كانت تتلقى فيها تعليمها الإعدادى والثانوى ، ثور على معلمها من أجل هذه الثورة .. وتحدث أزمة شديدة تدخل فيها وزير التعليم طرفاً من الأطراف . وهى ، مع نفسها ، تكتب عن هذه الثورة القصص . وتنظم الشعر، وتتغنى به ، تحية لشهادتها .. ثم هى تحب - وإلى حد العشق - كل كاتب فرنسى حر كانت تراه يمنح «ثورة الجزائر» من نفسه، ما تمنحه هى لها من نفسها . وهى لا تكتفى بهذا كله، بل تذهب بها حماسها لهذه الثورة، وحبا لها، إلى حد أنها كانت «تتمنى» - كما تكشف لنا عن ذلك قصتها المعنونة : «أمنية» ، المنشورة فى هذا الكتاب - أن تذهب إلى هناك .. إلى «البؤرة المحرقة» التى كانت تعيش ، «بفكرها» ، فى قلبها .. أجل ، لقد كانت "نادية" تتمنى أن تذهب إلى الجزائر .. فتقاتل مع أولئك الذين كانوا يقاتلون .. وتعذب مع

أولئك الذين كانوا يعذبون . . . وتستشهد مع أولئك الذين كانوا يستشهدون!

• • •

لقد ماتت "مارى" فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ،
وهى ما تزال فى الرابعة والعشرين من عمرها .

وماتت "نادية" فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ ، وهى
ما تزال فى الثانية والعشرين من عمرها ففرق بينهما الزمن بنصف
قرن كامل . . . ولكنهما ، مع ذلك ، اجتمعتا معاً . . . اجتمعتا معاً
عندى . . . واجتمعتا معاً فى هذه المقدمة . . . وستبقيان مجتمعتين فى
ضمير التاريخ . . . تاريخ الإنسانية وأدبها .

ولقد حزن الناس فى باريس حينما نشرت مذكرات "مارى بشكر
تسيف" ، لأول مرة ، فى أوائل القرن العشرين . . . وسوف يحزن الناس
حينما يقرءون مذكرات "نادية حلمى سلام" عند نشرها . ولكن ،
لماذا لا أحس أنا أن "مارى" أو "نادية" . . . قد تركتا دنيانا هذه قبل
الأوان . . . أو أن حياتهما لم تكتمل ؟ !

إنى أراها حياة كاملة . . . بل لعلها كانت تنقص لو أنها طالت ،
ثم استحوطت إلى حياة عادية كحياة الملايين من الناس . . .

إن حياة كل من الأدبيتين الشابتين نموذج فريد فى لونه . . . نموذج
يمنح الإنسان فى كل مكان ، وكل زمان . . . ثقة بالإنسان ، وإعجاباً
بموهبه التى لا حد لها ، واعتزازاً بطموحه الذى لا يتوقف عند شئ ،
وبقدرته على أن يجعل من الحياة نفسها عملاً فنياً رائعاً ، ومؤثراً ، ونافعاً ،
وموحياً ، وباعثاً على الرجاء والأمل .

إن حياة الإنسان — أى إنسان — لا تقاس بالأمتار . . . ولا بالأرطال
ولا بالأرقام . فإن الأشياء الباقية فى حياة الإنسان ، قليلة العدد . . .
وصغيرة الحجم . . . بحيث قد تمر أحياناً دون أن يلتفت إليها أحد ،

ثم لا تلبث ، مع هذا ، أن تغير معتقدات وتصورات الملايين على مر الزمان .

فلم يكن في وسع أحد ، في الإمبراطورية الرومانية ، أن يتصور أن هذا الشاب الصغير الفقير الذي اجتمع حوله عدد من الصيادين الفقراء قادر على أن ينشئ عالماً جديداً .. وأن يثل عروشاً ، وأن يطلق ثورات ، لمجرد قوله من فوق تل في أرض فلسطين : « أحبوا أعداءكم .. باركوا لاعنيكم .. صلوا للذين يسيئون إليكم !! » .

ولم يكن في وسع أحد ، في العالم بأسره ، أن يتصور أن هذه المعركة الصغيرة في موقع مجهول ، في صحراء جدد ، اسمه : « بدر » يمكن أن تنشئ حضارة ، وأن تطلق الطاقة الإنسانية في اتجاه لم تعده . وبقوة لم تعرفها !!

كذلك « ماري » . . و « نادية » . . لا نرفعهما فوق قدرهما ، ولكنهما ، بالصفحات التي تركناها لنا — وإن كانت صفحات قليلة — قد منحتنا الأدب في اللغة التي كتبت كل منهما بها ، شيئاً ممتعاً . . وجديداً . . وجديراً بالتأمل والالتفات .

إن هذه الصفحات التي تركتها كل منهما وراءها ، تعلن لنا : أن الحياة التي نحياها لا يصنعها فقط المشهورون الذين تغمرهم الأضواء ، والذين نعرفهم بالأسماء . . وإنما يشارك في صنعها ، ويضيف إليها ، ويكمل فيها ، مجهولون ، وصغار ، ماتوا ، أحياناً ، وهم لا يزالون في بداية العمر ، لكنهم — وإن جهلناهم — قد قالوا ، وفعلوا في المحيط الذي عاشوا فيه ما لن يفنى أبداً .

لقد كنا ، من قبل ، نظن أن صوتنا الذي يخلخل الهواء يموت إذا ما تجاوز آذاننا . . فجاءت فتوحات العلم لتثبت لنا أن هذا الصوت يبقى . . وأنه قادر على أن يقطع آلاف الملايين من الأمطار ، ليصل

من أقصى الأرض إلى أقصاها . لو وجدت الأداة التي تلتقطه .
وما حياة "نادية" إلا موجة من هذه الموجات . . . موجات النور
التي تتدفق بها الحياة لتبقى في حياة الناس . . تدفع بهم إلى أعلى ،
وتدفع بهم إلى الأمام ، وتزيدهم حباً في كل ما هو سام ، ونقى ، ورقيع .
محلين فوق آلام الدنيا . . منطلقين إلى عالم غير منظور . .
ولكنه نظيف ، وفسيح ، وعظيم .

لقد جعلت "نادية" من قولها : « إني صاعدة إلى السماء » شعارها
الذي رددته كثيراً ، في مواقع كثيرة من مذكراتها .
والسواء هنا ليست هذه القبة الزرقاء التي أثبت العلم أنها لا شيء . .
وأنها لا تحجب شيئاً . وأنها مجال غير محدود . . مجال لا نهائي للصعود
والارتفاع !

إن « السماء » هي هذه الآمال التي صاحبت الإنسان في تطوره ،
وتدرجه ، وكفاحه . . والتي عذبت ، وأرقت ، وهي هي التي قوته ،
وثبتته ، وهونت عليه التضحية . . والعذاب . . والألم !

« إني صاعدة إلى السماء »

ما أحلاه شعاراً يليق "بنادية" . . وتليق به .

فتحي رضوان

إنى صاعدة

بقلم : محمد زكى عبد القادر

« انقسمت بين الموت والحياة ، بين الوجود والعدم ، بين الواقع والخيال ، وشدها الموت أكثر مما شدتها الحياة ، وكان الموت هنا هو الطريق إلى الله » ..

كتابا صغيرا تلقيته منذ فترة ليست طويلة ، يروى قصة فتاة فى العشرين من عمرها ، ذهبت للقاء ربها ، لأنها كانت تريد هذا اللقاء ، كتب قصتها أبوها « الأستاذ حلمى سلام » ، أو قل كتبت هى قصتها فى مذكرات خاصة ، ولم يكن على الأب الحزين إلا أن يجمعها ، وينسقها ، ويقدمها إلى من يريد أن يفهم لغز الحياة والموت ، إذا كان فى هذه الدنيا من استطاع أن يفهم هذا اللغز ، أو سيكون فيها من بعد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، من يستطيع .

وانظر إلى قول الفتاة فى مذكراتها الخاصة لسنة ١٩٦٤ : « أماه .. ما أحلى اللقاء إنى أسمع الصوت البهير .. وإشارة الملكوت نحوى والنفير .. أماه .. هذا الضوء من ربي القدير ، ونداؤه : ليلي هبى من نوم صغير ، ليلي .. اصعدى نحو السماء .. نحو الله وبجانب الرب الغفور .

• نشرت بجريدة الأخبار بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٧١ .

أماه : إني صاعدة ، أماء إني فى حبور .. أماء لا تبكى . ففى جناته
أحيا وأطير » .

وفى الكتاب الصغير : (إني صاعدة) جملة صور إنسانية ،
لا يمكن أن تكون مجلوة فى هذا الإطار الأخاذ ، إلا أن تكون صادقة
أمانة ، وإلا أن تكون صادرة عن عمق بعيد فى النفس الإنسانية ، وما
أعجب أبعادها ، وما أروعها لمن صفت نظرتة ، وتخلص من تراب
الجسد واتصل بالروح الأعظم .

هناك (نادية) الصانعة والبطلة التى شفت روحها حتى أبدعت ،
وهى فى سن صغيرة ، كأنها تأخذ من معين لا دخل له بالسن ،
ولا بالتحصيل ، ولا بالعلم ، معين موصول بالقدر الأكبر ، مرتفع عن
تراب الجسد إلى ذرى الروحانية لن يبلغها إلا من أوتى القدرة على
النفاذ إلى أصول الأشياء وخصائصها ، لا بالعلم والتعليل .. ولكن
بالصفاء والإلهام .

إن العلم والتحليل .. والقدرة والمعرفة والفهم .. تعطى الإنسان أشياء
جميلة ورائعة ، ولكنها لا تعطيه الحقيقة كلها ، إنما يعطيه إياها ما هو
أعظم وأعمق وأشمل من قدرة الإنسان المحدودة على المعرفة والفهم ،
وأعنى بها قدرته على الاتصال بالملا الأعلى . وهو فى هذا محتاج إلى
الروح أكثر من حاجته إلى المعرفة ، محتاج إلى الشفافية أكثر من حاجته
إلى الذكاء والفهم والجهد .

هكذا كانت « نادية » . لديها معين لا ينضب من الروح ، والإلهام ،
والنفاذ من ضباب المادة إلى صفاء المعنى ، من المحدود إلى غير المحدود ،
من الحقيقة الأرضية المشوبة إلى الحقيقة السماوية التى لا شائبة فيها .

ويظهر أن « نادية » انقسمت بين الموت والحياة ، بين الوجود والعدم ، بين الواقع والخيال ، فشدها الموت أكثر مما شدتها الحياة ، والموت هنا طريق الله ، وشدها العدم أكثر مما شدتها الوجود ، والعدم هنا ليس الخواء ، ولكنه السبيل إلى المعرفة الكلية ، وشدها الخيال أكثر مما شدتها الواقع ، لأن الواقع ضيق محدود بينما الخيال واسع من غير حدود . وقد خلقت أشبه بالطائر في الفضاء يغرد للكون كله ، والله صانع الكون ، تأخذ أغاريدها صورة التساييح ، ترفرف بأجنحتها لا لتجد المستقر على الأرض الثابتة ، ولكن لكي تجيد التحليق إلى السموات العلى .

وقد خرجت نادية بعقلها عن حدود الإنسان المهموم بشئونه الخاصة إلى حدود الإنسان الذى تعذبه هموم الناس . فهي لا ترى نفسها فى داخلها ، ولكن تراها أيضاً فيمن حولها ، انظر إلى ما كتبه فى مذكراتها يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ :

●● د أنا سعيدة اليوم إذ نجحت فى أن أجعل إنساناً آخر يشعر بالسعادة ، لقد قال لى : شكراً جزيلاً ، ثم ابتسم ابتسامة ملأت وجهه كله ، وبدأ لى كأنه لم يكن يتوقع منى الشاء على قصيدته التى كان قد أعطانى إياها لى ابدى رأى فيها ، وفى خلال الحديث قال لى : « إنه نظم قصيدة جديدة ، وقد شجعت على أن يعث بإنتاجه إلى الصحف اللبنانية ، لقد أطاعنى كما لو كان طفلى ، وكما لو كنت أنا مسئولة عنه ، وقد ملأنى هذا الشعور بالفخر لكم هو رائع أن تشعر المرأة بأن رجلاً

يحتاج إليها .. إلى عقلها .. احتياجًا حقيقيا ، لقد قررت أن أواصل تشجيعي له .. إنني يجب أن أدفعه لكي يقهر تردده ويتغلب على عدم ثقته بنفسه . وهو شيء يكاد يقتله ويقتل معه مواهبه ، .

في هذا الكلام تبدو « نادية » إنسانًا يسعددها أن تسعد غيرها . وتبدو أنني يسعددها أن يعتمد رجل عليها كأنه طفلها ، إنها « غريزة الأمومة » تبدو هنا في أروع صورها .

وكانت « نادية » - كما يقول والدها « الأستاذ حلمي سلام » - قادرة بحساسيتها هذه ، وأنا أفضل أن أسميها إنسانيتها ، أن ترتفع بمشاعرها فوق عصبية الدين والجنس واللغة ، وقادرة أيضًا أن تسقط من حسابها عنصري الزمان والمكان لتعيش آلام ناس لم ترهم ولم تعرفهم .. أناس عاشوا قبل أن تولد هي بعشرات السنين ، ومضوا عن الدنيا دون أن يجمع بينها وبينهم لقاء ، ودون أن تنشأ بينها وبينهم صلة الإنسان بالإنسان ، إذ سجلت في مذكراتها ثلاث صفحات ضمنتها مشاعرها الخاصة نحو مأساة الرسام الهولندي (فان جوخ) وما لقيه في حياته من عذاب وجحود ونكران . وفي هذا تقول :

● « صهرتني مأساة « فان جوخ » . بل أدمتني ، وزادتني خوفًا من المجهول ، ولست أريد بهذه الكلمات أن أتحوّل إلى جوهر ذاتي . ولكن وددت فقط أن أسجل أنني شعرت أنني جد قريبة من هذا الرجل الفنان ، لا يفصلني عنه سوى خيط واه ، أجل ... فإني أشعر أن ما يفصل بيننا هو ذلك « الخيط الرفيع » الذي يفصل بين الوجود والعدم ، ولست أبالغ إذا قلت أنني شعرت بروحي تهفو إلى روحه ، وتتجه إلى قبره ، وتحاول قدر استطاعتها تخفيف آلامه ، بل شقائه . ذلك الذي لم توجد ،

بعد ، الكلمة التى تدلنا على مقدار عذابه وآلامه .. وجوعه وتعاسته ..
وفقره وحرمانه وضياعه وبؤسه ومرارته .
ثم تقول :

● « وددت لو دمرت كل من أسهم فى تدمير (فان جوخ) ، ووددت
لو ذبحت « جوجان » بالموس ، كما لم يستطع « فان جوخ » أن يفعل .
ولو فعل ، لكان الحق فى جانبه.. لقد شعرت بالخوف والرغبة تهددنى ،
والمخاوف والهتافات التى كانت تناديه ، تنادينى أنا أيضًا ، إننى أسمعها
سمعا حقيقيا لاختيالياً، وأشعر بالخوف من المجهول الذى تربص له يؤرق
مضجعى ، إننى لا أستطيع أن أقول إلا أن هناك روابط قوية تربطنى بهذا
الإنسان».

والصورة الإنسانية الرائعة الأخرى هى صورة الأم . وليس أبلغ فى
الإفصاح عنها من قول زوجها الأستاذ حلمى سلام :
« وجاءتنى أمها حيث كنت أرقد مفتوح العينين والأذنين معاً ، جاءتنى
متسربة بأقصى الهدوء ، معتصمة بأنقى الإيمان ، ولكن كان هناك -
مع هذا الهدوء وذلك الإيمان - بحران من الدموع يجريان على خديها ،
جاءت توقظنى لأقاسمها النار التى اندلعت لتلتهم قلبى . ولتقول لى : إن
زهرتنا الجميلة سئمت المعركة . وإنها ألقت سلاحها وذهبت ، ذهبت
لكى لا تعود ، ولا أدرى الآن من منا كان يتوكأ على الآخر ، ونحن
نتزع خطانا انتزاعاً متجهين نحو الفراش الذى أراحت عليه « نادية »
جسدها المتخن بالجراح » .

إني صاعدة بقلم : حافظ محمود

بينما كنت أكتب هذه السطور ، وفى ذهنى شحنة من الذكريات القديمة عن ٢٩ يوليو . إذا بنظري يقع على هذا التاريخ فى صفحة من كتاب أو كتيب عجيب ، كتاب يقدم فيه كاتب معروف ابنته إلى القراء . الكاتب المعروف هو الزميل « الأستاذ حلمى سلام » وابنته هى الفقيدة العزيزة « نادية » .

ربما كانت هذه هى أول مرة يقدم فيها أب إنتاج ابنته ، وما هو إنتاجها ؟ ، إنه يضع صفحات من مذكراتها على مدى الحياة القصيرة التى امتدت بها فى هذه الدنيا ، حياة العشرين عاما التى اختطفها الموت من بعدها بقليل .

ماذا يمكن أن يكون فى مذكرات فتاة فى العشرين . ودونها .. أو فوقها بقليل ؟ لابد أن يكون بها نشيد متصل من عاطفة الحب ومن آمال الحياة . والمذكرات مشحونة فعلا بهذه العاطفة وبهذه الآمال ، لكنها عاطفة الحب لله وحده ، وآمال الحياة فى جوار الله وحده ..

لك أن تتصور فتاة دون العشرين تقول فى مذكراتها : « إني صاعدة

• نشرت بجريدة الجمهورية بتاريخ ١٩٧١/٧/٢٦ .

إلى السماء» لك أن تتصور فتاة في هذه السن تقول في مذكراتها :
« إن أملها الأوحيد هو أن ترى الله » ، وقد يكون هذا محتملا من فتاة
نشأت نشأة دينية ، أو نشأة قست فيها الحياة عليها . ولكنه يبدو عجيبا
من فتاة كان مسار تعليمها في مدارس اللغات الراقية . وكانت دراستها
أكثر من ناجحة ، إلى درجة أنها كانت بين العشرة الأوائل في امتحان
الثانوية العامة ، كما كانت في الصف الأول من المتفوقين والمتفوقات في
كلية الاقتصاد .

وإذا أنت تأملت صورتها ، وجدت فيها ملامح الجمال ، وإذا تابعت
أخبارها - قبل السنة الأخيرة من حياتها - وجدت فيها كل علامات
العافية ، وإذا نحن امتحنا البيئة التي نشأت فيها ، لم نجد بها أثرا
للتصوف ، فما .. أو من .. الذي ألهم هذه الفتاة منذ نشأتها ؟ ألا تحب
إلا الله . ولا تأمل إلا في لقاء الله ؟

إنه الله ذاته ، إن الذين يقرءون كتاب : (إني صاعدة) بقلم حلمي
سلام ، قد يظنون أنها لوعة أب على فراق ابنته هي الدافع على إصدار
هذا الكتاب ، وحتى لو كان هذا الدافع صحيحا - فإنني أرى في هذا
الكتاب رأيا آخر :

● أرى فيه دليلا تقدمه فتاتنا الراحلة على أن الله يصطفى من عباده
من يشاء . فإذا بالذين يصطفئهم ربهم يعيشون في هذه الدنيا لمعنى
يفيد غيرهم .. بينما يشعرون هم بأنهم غرباء عن هذه الدنيا .

● أرى فيه دليلا على أن من الناس ناسا تغلب أرواحهم على أبدانهم .

وقد يكونون قلة . بل المؤكد أنهم قلة . لكن هذه القلة هي الأدلة المادية الحية على روحانية الإنسان .

● أرى فيه دليلاً على أن عمر الإنسان ليس بعدد السنين - فهذه الفتاة قد نبغت في الرابعة من عمرها . وكتبت الحكمة في الرابعة عشرة . وبلغت قمة من قمم الأساليب في الأدب ، وهي دون العشرين . وتركت مذكراتها وهي في هذه السن وكأنها مذكرات إنسان خاض معارك الحياة ، وحقق فيها انتصارات الفكر والوجدان .

لقد صدق الأستاذ فتحى رضوان ، وهو يقدم لهذا الكتاب ، مقدمة رائعة قال فيها :

●● « إن نادية سلام لم يكن لها أن تعيش أكثر مما عاشت ، فالإنسان .. لماذا يعيش الإنسان ؟

» إن أقصى ما يستطيع الإنسان أن يحققه في عمر قد يمتد إلى مائة عام هو أن يترك أثراً ، أن يترك معنى ، أن يترك حكمة ، فإذا استطاع الإنسان - بفضل ربه - أن يحقق هذا كله في آحاد السنين ، فكأنه عاش كمن عاشوا عشرات والعشرات .. ولربما كانت أفضل من الوفهم . لكن - هل هذا المعنى ، هو كل ما فى هذا الكتاب ؟ كلا - لقد أودعت هذه « الصاعدة إلى السماء » فى كتابها للشباب روحاً جديدة ، تجعل من الحكمة متعة للشباب ، ألاليتهم يقرءون .

شجاعة رجل حزين

بقلم : أحمد رشدى صالح

صفحات هذا الكتاب الصغير قرأتها بقلبي ، وكأن قلبي فى جناز .
لقد ماتت لواحد منا ، نحن حملة الأقلام ، ابنة فى ريعان شبابها ،
وكان عليه أن يواجه الموت والفراق .

وكل رجل منا يحزن بطريقة الخاصة ، وأسلوبه الذى لا يتكرر .
لكن حامل القلم لا يستطيع أن يدفن أحزانه ويوارىها التراب مع أحبائه ،
إنه يبوح بها ، ويجعل الحروف والسطور مبكاه .

وعندما مات لابن الرومى بعض أبنائه ، توقف عن الكتابة للناس ،
ونظم مراثيه الجميلة ، لنفسه .

وبكى ابن الرومى بكاءه العبقري لفراق أوسط أبنائه ، ورفض أن
يعزيه الآخرون بالكلمات العادية المملة ، لأن فراق الأبناء هو الفراق
النادر فى أحزانه .

ومن أعظم صفحات الأدب التى كتبها « ترجينيف » ، فى رواية
« الآباء والأبناء » ، تصويره لموت البطل « بازاروف » الذى مات وهو
فى العشرين أو نحوها .

« نشرت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٧١ .

استخدم « تريجينيف » بلاغته وفنه فى تصوير « لحظة الألم النهائى الأخير » والبطل الشاب مسجى على فراش الموت وأبواه العجوزان ماثلان حول سريره ، تحجب الدموع والآهات مشهد جسمه عنهما .
وعندما انتهت حياة البطل الشاب ، كان أبواه يستأذنان فى أن يهما بالصلاة والبكاء ، وخر العجوزان على وجهيهما ، والأب يقول فيما أذكر : الآن اركعى أيتها الأم وهاتى الدموع ؟ .
وأما الصفحات التى قرأتها بقلبى أخيراً ، فقد كتبها « حلمى سلام » ووقف فيها مع ابنته وفقيدته « نادية » ، كما كان يقف بجوارها وهى تقاثل المرض .

ولقد قرأت كلماته ، وكلمات نادية ، التى سطرته فى أوراقها الخاصة وخاتنتى أعصابى ، فكلما كنا نحن الذين نعيش بما نكتب ، تجرحنا حين نبكى وحين نلهو ونضحك ؛ إنها تترك فىنا آثاراً غائرة قبل أن تلمس جلد الرأس من القراء ، وقد عرفت من هذه الصفحات : كم كان المرض المرهق يطحن الأب والأم ، طحن الرحى .
وفى ظنى أن الصفحات التى كتبها « حلمى سلام » ووقف فيها بقلمه إلى جوار مذكرات « نادية » ، هى أنموذج للشجاعة الأبوية - ففى هذه الصفحات يقف الأب مع ابنته ، كما اعتاد الرجال فى قرانا أن يسندوا ظهورهم إلى ظهور أبنائهم فى لحظات الشدائد المريرة وعندما يعترض طريقهم ذلك الخطر الذى قد يصيب منهم القلب والنخاع .

لو عاشت هذه الفتاة

بقلم : أمينة السعيد

قدمت لنا المكتبة العربية ضمن مجموعة (اقرأ) كتاباً جديداً .. كتبه الأخ والصديق والزميل الأستاذ حلمى سلام .

ولقد سبق لنا أن قدمنا هذا « الكتاب الجديد » فى باب « مكتبتك » . ومن عادتنا أن نكتفى بذلك ، ولكنى شعرت بضرورة الخروج على هذا التقليد فى هذه المرة بعد أن قرأت الكتاب ، وأخذت بما تضمنه من مادة إنسانية وأدبية ، جعلتنى أحس أننى أهدر حق المواهب الفذة إذا أنا تركت مثل هذا المؤلف يمر عابراً ، دون أن ينال ما هو جدير به من الإفاضة والتقدير .

فالكتاب المذكور يتضمن عرضاً رائعاً « لحياة ومذكرات شابة مرهفة الإحساس شديدة الألم » . هى « نادية سلام » ، ابنة المؤلف ، أو الفتاة الرائعة بمواهبها الفذة ، والتي شاءت الأقدار أن تحقق لها ، وهى لم تزل فى العشرين من عمرها ، أمنيتها الكبرى فى أن تلقى الله سبحانه وتعالى ، تكلمه وتناجيه ، فى عالم الأبدية المتسع البعيد عن دنيانا الضيقة الخائقة .

• نشرت بمجلة حواء فى ٢٤ يوليو ١٩٧١ .

وقصتي مع هذا « الكتاب » جديرة بالذكر . فقد تسلمته صباح ذات يوم وأوراق العمل مكدسة أمامي بصورة لا تسمح بدقيقة واحدة أضيعها في أى قراءة خارجية مهما بلغت قيمتها . وبحركة روتينية فتحت الكتاب كي ألقى نظرة سريعة على صفحاته الأولى . ولكن العجيب فى الأمر أننى ما كدت أقرأ سطورا معدودات منه حتى نسيت نفسى . وعندما رفعت رأسى عنه كنت قد قضيت معه ساعتين ، وصلت بعدهما إلى منتصف الكتاب أو أكثر ، ولم أجد القدرة على تركه بعد ذلك . فمضيت أقرأ - وأقرأ - وأقرأ ، حتى انتهيت منه ، وقد مضى الوقت كله دون أن أمس ورقة واحدة من الأوراق الكثيرة المكدسة أمامى .

وأشهد أن أروع ما فى الكتاب هو ما قدمه لنا المؤلف من مقتطفات اختارها بعناية من مذكرات « نادية » الخاصة : فقد اعتادت هذه الفتاة الموهوبة الحساسة أن تسجل أحاسيسها ونحواطرها فى كراسات ، حرصت على الاحتفاظ بها لنفسها فقط ، ولم ترها عين إلا بعد صعود صاحبها إلى رحاب الله .

وكانت « نادية » قد بدأت هذه المذكرات وهى فى الثالثة عشرة ، وتوقفت عنها حين ماتت فى العشرين من عمرها ، ولا يمكن لأى إنسان يقرأها إلا ويتأكد من أن « نادية سلام » ، لم تكن مجرد ابنة حبيبة ، حرقت قلب والديها بغيابها عنها وهى فى ميعة الصبا وربيعان الشباب ، وإنما كانت قبل ذلك برعماً متفتحاً لأدبية ممتازة .. وكاتبة فذة .. ومفكرة من الدرجة الأولى .

ولقد شعرت فى نهاية قراءتى لما سجله قلمها العجيب فى سلاسته

وعمقه ، بأن خسارة عالم الفكر والكتابة يموت هذه العبقرية الصغيرة لا تقل عن خسارة والديها المنكوبين بفقد أحب وأعز ابنة لهما ، ومن المؤكد أنه لو كان قد قدر لها أن تعيش لتنضج مع السنين بالعلم ، وتنصهر بالمران والخبرة ، لما استطاعت عقبة أن تعطلها عن الوصول إلى القمة ، والانخراط في صفوف الصفوة الممتازة من القيادات في عالم الفكر والأدب ، فلقد توافرت لها جميع مقومات النبوغ من عقل ذكى . وقلم بليغ واطلاع واسع . وقدرة مذهلة على تصوير الأحاسيس بأدق العبارات ، مع طموح زائد يدفعها إلى طلب الذروة في أى مجال من المجالات الكثيرة ، التى تتصارع فى اجتذابها إليها . وإنسان يملك هذه المقومات كلها لا يمكن إلا أن يكون عظيمًا .

ومن أبرز مميزات « نادية » أنها تجعلك بقراءة مذكراتها ، فى حيرة من أمرها : تشعر مرة أنك أمام موسيقية تصوغ آمالها وأحاسيسها فى أنغام حلوة تطرب القلب والروح معًا - ومرة أخرى أنها مصورة تحسن رسم الأفكار والمشاعر - وثالثة أنها متصوفة تتفانى فى حب الله وتذوب شوقًا إليه - ورابعة أنها ناقدة أدبية تحسن إصدار الأحكام على قمم الأدب والشعر والفلسفة - وخامسة أنها كاتبة ممتازة تعرف كيف تسيطر على القلم وتطوعه لإرادتها ، فيسير بين أصابعها سهلاً كالجدول الرقراق ، يسجل ما تريد أن تقوله ببراعة تسبق سنّها بمرحلة كبيرة .

وتبدو « نادية » الموسيقية المتصوفة فيما كتبه وهى فى الرابعة عشرة

من عمرها :

●● « أماه ما أحلى اللقاء .. إني أسمع الصوت البهير . وإشارة الملكوت نحوى والنفير . أماه .. هذا الضوء من ربي القدير . وندائوه : ليلي هي من نوم صغير . ليلي .. اصعدى نحو السماء . نحو الله .. وبجانب الرب الغفور . أماه .. إني صاعدة .. أماه إني فى حبور . أماه .. لا تبكى ففى جناته أحيا وأطير » .

كما تبدو « نادية » الناقدة فى أحكامها على كبار الشعراء والفلاسفة بعد أن قرأت أعمالهم وتغلغلت بروحها فى معانيها ، وكونت لنفسها رأيا واضحا مستقلا لا يهم إذا كنا نتفق معها فيه أو لا نتفق ، فالأهم من ذلك بكثير ، أنه يعبر عن حكمها الشخصى فىمن أثروا بفلسفاتهم وأشعارهم فى الناس من كتابنا وكتاب الغرب العظماء ، فلقد ضمنت مذكراتها عشقها « للامرتين » ، ورثاءها « لبودلير » ، ونفورها من أخلاقيات « فولتير » ، وإعجابها العميق « بالبير كامى » المفكر والثائر الذى شارك شعب الجزائر آلامه وأحلامه .

كذلك كانت « لنادية » آراء فى كبار شعرائنا العرب ، سجلتها فى مذكراتها وهى لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها ، فجاءت بعمقها وفرديتها أنضج من سنها الصغيرة بكثير .

فكان « شوقى » فى نظرها ، عميقا عظيما ، ولكنه ليس ساخنا ، وكانت تراه فى معالجته للقضايا الكبرى مثل رجل ينزل إلى البحر وهو خائف منه ، تراه دائما ملتصقا بالشاطئ خشية أن يجره الماء إليه فيضيع بين أمواجه .

ود حافظ ، شاعر فذ ، لكنه حزين أكثر مما يجب . ينقصه التعبير عن جمال الحياة ، لا أحزانها فقط .

ود محمود سامي البارودي ، ليس شاعراً فحلاً فقط ، وإنما هو إلى جانب ذلك بطل وطني عظيم يعتد بنفسه وبتاريخه وبكرامته الإنسانية والعسكرية .

ود أبو القاسم الشابي ، الشاعر التونسي - الذي انتقل إلى العالم الآخر في ميعة الصبا مثلها - كان رأيها فيه أنه رائع بقدرته على التغنى بجمال الحياة ، ورضاه بفكرة الموت دون هلع أو جزع أو أسف .

أما د بشارة الخوري ، الأخطل الصغير فكانت تعشقه لما يتميز به من رقة ما بعدها رقة ، وقدرة لا تقف عند حد في تجسيد صور الجمال وإبرازها .

هذه الآراء التي أودعتها « نادية » مذكراتها - حتى إذا لم نكن نتفق معها في بعضها - فمجيئها من فتاة في الرابعة عشرة من عمرها يدل على سعة الاطلاع المذهلة .. والقدرة على التغلغل في أضخم الأعمال الفنية ، والتمسك بالفردية في إصدار أحكام خاصة بها وحدها وليست متأثرة فيها بما يأتي من الآخرين .

وتبدو « نادية » الفنانة - الإنسانية - الحساسة - في قولها في مذكراتها :

« بزغ فجر يوم جديد وضاء ينضح بالبشر والأمل .. أنسام اليوم الجديد تخطر إلى نافذتي فتعطرني بشذاها ، وكانت الطيور تملأ الجو حولي بغنائها كأنما ترف إلى خبر نجاحي الذي طالما سهرت الليالي ،

وسكبت الدموع لكى أناله . ونسيت - نسيت حاضرى ، ورحت أتخيل الأيام الآتية ، ودخلت مع نفسى فى محاولة لرسم نقاطها .

ولعل أعجب ما فى مذكرات « نادية » إلحاحها فى طلب الموت ، لا بحزن أو أسى أو يأس ، إنما بفرحة ورضا ورغبة ملحة فى الاستمتاع ببقاء الله عز وجل .

● فتقول فى مكان من مذكراتها :

« لا شك أن لكل إنسان فى الحياة أمنية يريد تحقيقها .. وإذا سألتنى أحد عن أمنيته التى أتمنى أن أحققها ، فإننى لن أتردد فى القول بأن أمنيته هى أن أصعد إلى السماء .. أن ألقى الله .. أن أكلمه .. أن أناجيه .. أن أفضى إليه سبحانه وتعالى بكل ما يدور فى نفسى ، »

● وفى مكان آخر تقول :

« إننى كثيراً ما تمنيت أن أموت .. وليس ذلك لأننى يائسة من حياتى .. أو لأن هناك ما يعكر على صفوى .. إنما أنا أتمنى الموت لأنه الطريق الوحيد الذى أستطيع من خلاله أن ألقى الله .. وأنا أريد أن ألقى الله .. »

● وفى مكان ثالث تقول :

« إننى أحس أننى أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . ولكن ما هو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله ؟ - ليست عندى أية فكرة عنه ، أحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون ناسكة ، وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف بلاد العالم جميعها - وأحياناً أتمنى لو كنت أعيش فى هذا العالم

بمفردى أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة ، وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها ، ، ولكن الأهم من هذا كله هو أننى فى كثير من الأحيان أشعر برغبة جارفة فى الموت ، لا لسبب إلا أننى أريد أن أرى الله .

هذا قليل من كثير مما يحق علينا أن نقوله فى « نادية » ، وأكثر ما يؤسفنى - وأنا أكتب هذه الكلمات - أن أجد الحيز يضيق أمامى ويحرمنى لذة الاسترسال فى الحديث عن بنت ولا كل البنات ، وعظيمة ولا كل العظيمات ، وروح ولا كل الأرواح . فلقد كانت « نادية سلام » مجموعة من براعم العبقريات التى لو أعطيت الفرصة لتفتحت ، ولقامت بأروع الأعمال .

فألف رحمة على « نادية » . وألف شكر لحلمى سلام الذى أعطانى ، بكتابه عن ابنته الحبيبة ، فرصة لا تعوض فى معرفة ودراسة حياة شخصية فذة شاء القدر أن يقتطف زهرتها قبل أن تنمو وتتفتح وتملأ الأجواء من حولها عطراً وعبيراً .

متى تسيل العبرات ؟

بقلم : محمد مصطفى غنيم

لست ممن تسيل عبراتهم بسهولة ، وقليلة هي المواقف التي تجعل دموعى تنساب على وجنتى فى سكون رغم مقاومتى بكل ما أملك من قوة ، فقد كنت أعتقد منذ الطفولة ، أن الدموع للأطفال والنساء فقط ، ولم أعرف إلا بعد أن تجاوزت المرحلة الأولى من الصبا أن الدموع بلسم مهدئ ومنفس لكثير من الآلام .

ولعل من أكثر المواقف إثارة لدموعى ، منظر أب فقد ابنه ، أو أم ثكلت طفلتها ، بل إن مجرد التفكير فى مثل هذا الموقف ، يجعلنى عاجزاً تماماً عن منع ذلك السائل الدافئ من أن يبلل صفحة وجهى .

ومنذ سنوات ، قدر لى أن أترجم كتاباً لكاتب عالمى يعتبر من أبرع كتاب الرحلات العالمية المصحوبة بدراسات سياسية واجتماعية واقتصادية للمناطق التى يزورها . وهو « جون جنتر » ، صاحب السلسلة المعروفة المسبوقة بكلمة : (داخل) ، ومن أشهر كتبه « داخل أوروبا » و « داخل أفريقيا » ، و « داخل الاتحاد السوفيتى » إلخ .

غير أن الكتاب الذى كنت أترجمه له فى تلك المرة كان من نوع

• نشرت بجريدة الأخبار بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٧١ .

آخر ، لم يكن للكاتب خبرة فيه ، كتاب شاءت ظروفه الأليمة أن يمسك القلم ليكتبه بدموعه ونبضات قلبه ، وكل خلجة من خلجات نفسه ، كان كتاب « جنتر » الجديد يحمل عنوان : « أيها الموت - لا تفخر بما عملت » ، وفيه يحكى الكاتب قصة صراع وحشى قاسٍ بين ابنه الوحيد الذى كان طالبًا وسيما فى التاسعة عشرة من عمره ، يتفجر حيوية وذكاء ، وبين داء خبيث مفترس أنشب أظافره فى رأس الفتى . وقد سجل « جنتر » قصة الصراع المرير فى كتابه الذى كنت أغالب دموعى وأنا أقوم بترجمته ، ولم أستطع أن أحول دون سقوط بعض العبرات على الورق الذى أكتب عليه .

وأمس - عجزت مرة أخرى عن مقاومة هذه الدموع ، وهى تبلل صفحات الكتاب الذى كنت أطلع فيه قصة صراع أخرى بطلتها مخلوقة شفاقة مرهفة الحس ، عرفتها منذ كانت طفلة تحب حتى أصبحت زهرة يانعة ، وطالبة لامعة ، كل يوم من أيامها ييشر بمستقبل مشرق ، وحياة مثمرة تفيض إنتاجًا وبشرًا .

كانت « نادية » منذ طفولتها ، مخلوقة غير عادية ، قلبها كبير يتسع لكل شيء ، لكل إنسان . يعتصر الألم قلبها ، وتفيض نفسها حزنا لأية مصيبة أو كارثة ، ولو لم تكن لها أية صلة بصاحبها أو ضحيتها ، وتهتز روحها تأثرًا لمشهد تراه أو كلمة تقرأها ، أو صورة مؤثرة تقع عليها عينها ، وتسجل كل ذلك بعبارات شاعرية مرهفة ، تترك فيها العنان لعواطفها وأحاسيسها .

وكما فعل « جون جنتر » معى فى كتابه ، استطاع « حلمى سلام »

أن ينتزع دموعى ، وهو يكتب بدموعه ، قصة حياة ابنته « نادية » فى كتابه الأخير « إنى صاعدة » ويسجل فيه صراعها الرهيب مع مشاعرها وأحاسيسها وخوارج نفسها ، قبل أن تدخل معركتها الأخيرة ضد العدو الغادر الذى سلبها منا فى غفلة من الدهر .

عندما مات النهار

بقلم : محمد العزبي

أنا أكره الموت ، وأكره الألم أكثر من الموت ، وربما كان هذا هو السبب في أن يدي امتدت أكثر من مرة إلى كتاب عن الموت والألم ، ثم تراجعته عنه ، وأمس فقط أمسكت بالكتاب أستعيد معه ذكريات صديق عاش سنوات طويلة مع صبر لا حدود له ، وألم لا حدود له ، وأمل يبدو وراء سحب كثيفة ولكنه لا يتلاشى أبدًا .

الكتاب بقلم « الأب » حلمي سلام . وموضوع المقدمة يوم موت ابنته « نادية » ، أما الكتاب نفسه فمذكرات « نادية » التي كانت تحس في بدء حياتها بأنها تريد أن تفعل شيئًا ضخمًا ، « ولكن ما هو هذا الشيء الضخم الذي أريد أن أفعله ؟ - ليست عندي أية فكرة عنه » . ومرت الأيام بالفتاة الرقيقة لتكشف قسوة الحياة ، ولتواجه أكبر مشاكل الإنسان ، وهي أن يجد طريقه - تقول نادية : « إنني أشعر بأنني أكاد أختنق ، فسهل جدًا أن يمشي الإنسان في طريقه . ولكن الصعب حقًا هو أن يعرف الإنسان كيف يختار ذلك الطريق » ، « إن السماء مع الأرض تكون في نظري سجنًا كبيرًا ، فمتى - متى أنجو بنفسى من هذا السجن الكبير ؟ » .

ونجت « نادية » بنفسها ، ماتت وهى فى عمر الربيع ، ذهبت دون أن تحس بالربيع ، فقد كانت حتى فى يوم رائع من أيام الربيع تحس بحزن عميق ، ويخيل إليها أنها تبحث عن شىء ضائع ، وتردد « أعتقد أننى لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأننى أموت موتاً بطيئاً » .

وبعد صراع طويل مع المرض ومع الحياة .. ذهبت « نادية » ماتت فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ ، يوم يصفه الأب حلمى سلام بأنه : « مشحون بالجزع وبالقلق وبالألم وبالخوف من المجهول الذى أخذ يكشف عن وجهه شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد مجهولاً ، أما بالنسبة لها فقد كان هذا اليوم شيئاً آخر ، كان يوماً بلا غد ، فلقد كانت تعشق الهدوء ، ولأنها كانت تعشق الهدوء ، فقد انتظرت حتى مات النهار » .

وغداً هو ٢٩ يوليو ، قلبى فيه مع « حلمى سلام » ، الصديق الذى أصبح يعانى من الصبر ، ومع الأم التى تنزف منها الدموع فى صمت ، وقلبى مع كل « نادية » تبحث عن الطريق فتصدمها الحياة ، قلبى مع فتاة رقيقة تعطى حياتها للحياة ، مع كل شاب يتطلع إلى أمل جديد وطريق جديد .

كلمة حق

بقلم : إبراهيم نوار

ظلت ساعات طويلة متردداً في أن أقرأ كتاباً كنت أظن أنني بقراءته أفتحم خلوة أسرة حزينة خلت لأحزانها ، وتفرغت لها تعيش كل دقيقة فيها مع الحزن والأسى ، ولوعة الفرقة الجارفة .

هل أستطيع أن أقدم على هذه التجربة ؟ ، هل أستطيع أن أتسلل إلى مشاعر إنسان يطوى أيامه ولياليه على جراح لم تندمل ؟

أقدمت وأنا أشفق على نفسي من التجربة ، ظننت أنني لن أقوى على متابعة مأساة فتاة شابة أديبة احترقت في زهرة العمر ، سجلت كل أحاسيسها ومشاعرها وهي تتطلع إلى الحياة والمستقبل ، ثم وهي تستقبل الموت ، تحس به يقترب ، فترسم على شفثيها - برغم الآلام المبرحة - ابتسامة تطمئن بها أولئك الذين يتعذبون حولها ، وتأهب طول الوقت لرحلة النهاية ، الرحلة الطويلة إلى السماء .

ومن البداية .. لم أستطع أن أرفع عيني عن الكتاب ، من أول كلمة إلى آخر كلمة فيه ، مشاعر تتدفق ، مع « نادية » ، في مقدمة من الشعر الرقيق تكشف عن روح شفاقة ملهمة ، ومع فتحي رضوان في دراسة مقارنة قدم بها للكتاب فأحسن تقديمه ، ومع الأب الحزين « حلمي

سلام « ، في عصارة فكر صاغها كلمات ، وكلمات تبلورت آلاما
موجهة تمس شغاف القلب ، لا يتابعها الإنسان قراءة بالعين المجردة
بقدر ما يخسها مشاعر تستثير بداخله أنبل ما فيه .

التاسع والعشرون من يوليو سنة ١٩٦٩ - يوم ككل الأيام التي
مرت بنا من أشهر سبعة سبقتة . سحقتنا حتى العظام . . . يوم مشحون
بالجزع ، وبالقلق ، وبالألم ، وبالحزن من المجهول الذي أخذ يكشف
عن وجهه شيئاً فشيئاً حتى لم يعد مجهولاً . أما بالنسبة لها ، فقد كان
هذا اليوم شيئاً آخر . . . كان يوماً بلا غد .

فلقد كانت تعشق الهدوء . . . ولأنها كانت تعشق الهدوء ، فقد انتظرت
حتى مات النهار . . . حتى هدا كل شيء ، وكل شخص . . . حتى
سكنت الحركة ، ونامت الحياة ، ثم . . . ثم ذهبت . ريانة كالربيع . . .
نقية كالفجر . . . طاهرة كالندى .

لم أكن بجوارها في اللحظة الحارقة التي ذهبت فيها عنا . . . وأيضاً
لم أكن بعيداً عنها . كنت على قيد خطوتين منها أريح جسدى المنهك
الذي هدمه القلق عايتها في حين كانت أذنى معلقة بنبضات قلبها الذي
كان في الأيام الأخيرة قد أخذ يدق في عنف مسموع ، كأن بداخله
طيراً يرف . محاولاً - بكل ما لديه من جهد واهن - ، أن يحطم
السجن الذي يغلق عليه أبوابه ، وينطلق إلى عالم أرحب وأوسع . . .
وكانت حواسي كلها معاقة بهمساتها . لكنها - ويا للهدوء الذي كانت
تعشقه - استطاعت أن تمرق كالنسيم من بيننا ، فلم يشعر بها
حين فارقتنا أحد . فقط ، طلبت من " شجرة الحب " التي كانت تنام
في حبات عيونها - طلبت منها جرعة ماء . وظنت أنها أن جرعة الماء
التي طلبتها منها " نادية " إنما هي كأي جرعة ماء أخرى طلبتها من قبل . .
وأنها طلبتها لتروى بها ظمأ أحسته ، وليس لكي تتزود بها للرحيل عن
حياتنا هذه إلى حياة أخرى . . . « حياة أفضل . . . حياة أكثر شفافية ،

وأكثر نقاء» على حد تعبيرها هي في قصة كتبها ، ولم تكن قد جاوزت :
بعد ، الرابعة عشرة من عمرها .

• • •

وجاءتني أمها حيث كنت أرقد مفتوح العينين والأذنين معا . .
جاءتني متسرلة بأقصى الهدوء . . معتصمة بأني الإيمان . ولكن . .
كان هناك مع هذا الهدوء : وذلك الإيمان — بحران من الدموع يجريان
على خديها . . . جاءت توفظني لكي أقاسمها النار التي اندلعت
لقلوبهم قلبها — لتقول لي إنها . . . إن زهرتنا الحبيبة قد سئمت المعركة . .
وإنها قد ألقت سلاحها . . . وذهبت . . . ذهبت لكيلا تعود .

ولا أدري ، الآن . من منا كان يتوكأ على الآخر . ونحن ننتزع
خطانا انتزاعاً متجهين نحو الفراش الذي أراحت عليه ” نادية “ جسدها
المثخن بالجراح . بعد معركة طويلة ، خاضتها بكل بسالة شبابها ضد
المرض الذي لم يشأ أن يكون رحيماً بها . فأسرف — غاية الإسراف —
في قسوته عليها . ولكن الذي أدريه ، يقيناً ، أننا نحن الاثنين —
أمها وأنا — كنا نتوكأ على إيمان بالله لا حدود له . . . وأن هذا الإيمان
بالله هو وحده الذي عصمنا من السقوط في هاوية الحزن الطاغى الذي
يتفجر في مثل هذه اللحظات الحارقة كأنه طوفان مجنون يحتاج أمامه كل
شيء . . . يحتاج الثبات ، ويحتاج العقل ، ويحتاج الرشد ، ويحتاج
الإيمان نفسه .

لم تستطع الضربة القاصمة التي نزلت بنا أن تذهب بشيء من رشدنا .
كنت قادراً على أن أنظر في وجهها الزكي الصبوح . وأن أتأمله ، وأن أنحني
عليه لأقبله في خشوع لم يمنعني من أن أشم رائحة قلبي الذي أخذ يحترق .
وكانت ” أمها “ قادرة هي الأخرى على أن تفعل نفس الشيء . . .
لم تشفق ، ولم تصرخ . . لم تلطم خدودها ، ولم تشق جيوبها . . لم يصدر

عنها أى صوت ، من أى نوع ، يمكن أن يزعج زهرتنا الحبيبة وهي في نومها الأبدى . . . وإنما فيض من القبلات ، الغارقة في الدموع أخذت تغمر بها جبينها ، ووجهها ، ويديها ، وكل جزء في جسدها الغض الذى ما عثم - وهو لا يزال في ريعان ربيعہ - أن ذبل وذوى .

ولا أدري - في غمرة الحزن الطاغى الذى ابتلعنى في تلك اللحظة الحارقة - لا أدري كيف قفزت أمامى صورتها وهي جالسة معى ذات مساء في شرفة منزلنا ، وكانت قد تركت وراءها فراش المرض بعد سبعة أشهر أليمة . . . وأخذت تصعد سلم الشفاء بخطى لم تكن سريعة ، لكنها كانت ثابتة ومبشرة - أو هكذا حملنا الأمل على جناحيه فخلناها كذلك .

كان حديثنا في تلك الأمسية ، يدور حول نزول أول إنسان على سطح القمر . . . كانت ترى في هذا النزول إنجازاً إنسانياً مذهلاً . . . وبينما نحن آخذون في هذا الحديث ، وفيما سوف يكشف عنه المستقبل في مضمار السباق نحو القمر ، إذا بها فجأة تحول مجراه وجهة أخرى لم أكن أتوقعها منها ، ولم تكن لتخطر لى على بال - سألتنى :

- بنفسى أن أسألك سؤالاً . . .

- اتفضلنى . . .

- هل الناس الكويسين لما يموت عندهم حد - هل يبصوتوا عليه ؟

وانقبضت نفسى انقباضاً شديداً لهذا السؤال الذى فاجأنى به . . .

وزاد من انقباض نفسى أنه لم يكن هناك - لا من الحديث الذى كان

يجرى بيننا . . . ولا من الجوالذى كان يحيط بنا - ما يمكن أن يوحى

إليها به . ومع ذلك ، كتمت عنها - وبصعوبة بالغة - الانقباض الذى

أطبق على صدرى كأنه كابوس طاغ . . . وسألتها بدورى :

— الناس الكويسين دول زى مين ؟ .
 وبدون أدنى تردد من جانبها . . . وكما لو كان الجواب جاهزاً
 على طرف لسانها قالت :
 — زينا مثلاً . .
 قلت :

— اللي زينا ما يصحش أبداً يصوتوا على حد يموت عندهم .
 لقد أدهشنى سؤالها عندما فاجأتنى به . . . وأدهشنى أكثر
 أنه كان غريباً تماماً على موضوع الحديث الذى كان يدور بيننا . لكن
 الذى أدهشنى أكثر من هذا وذاك ، هو ذلك التهلل العجيب الذى
 رأيته يملأ وجهها كله عندما سمعت منى الجواب : « بأن الناس اللي
 زينا ميصحش يصوتوا على حد يموت عندهم » .
 لقد أحسست بها ، ساعتها ، كما لو كانت تريد أن تقول :
 « الحمد لله » .. وربما لم يمنعها من قولها إلا إشفاقها على . . أو ربما
 لم تشأ أن تقولها حتى لا تشي بما كان يدور فى أعماقها ولا تريد
 أن تكشف عنه . . واكتفت بأن علقت على إجابتي بقولها :
 — أنا برضه بأقول كده .

لا أدري كيف تذكرت فى هذه اللحظة الحارقة . . لحظة الصمت
 الخاشع الذى انتابني وأمها ، ونحن واقفان فوق رأسها — ذلك الحديث الذى
 دار ذات مساء بيني وبينها وكيف أنها كانت حريصة — دون أن تفصح —
 على ألا يصوت عليها أحد . . وكيف أننا — وبإلهام من الله سبحانه —
 قد نفذنا لها وصيتها التى لم تفصح عنها . فلم ينطلق فوق رأسها صوت
 ولا صرخة . . بل لقد كانت أصوات الموسيقى . . موسيقى الصباح
 التى كانت من أحب الأشياء إلى نفسها . . تنطلق من أجهزة الراديو
 فى بيوت جيراننا .

ووجدنا . . . وجدنا تماماً . . . كان علينا أن نواجه هذه اللحظة الأليمة . . . بل البالغة ذروة الألم في حياة الناس . لحظة أن يمد الموت يده ، بكل القسوة واللامبالاة ، إلى قلب الإنسان فينتزع قطعة منه . . . يأخذها ويمضى ، ثم يترك القلب ينزف دماءه حتى يأذن الله بالرحمة بالالتئام . وقد يطول الزمان كثيراً قبل أن يكف الحرح عن نزف دماؤه . ويتوقف ذلك على طبيعة الإصابة نفسها . . . فليس من بصاب بجرح في قلبه ، كمن يصاب بجرح في أصبعه .

* * *

وتعاوننا - أمها . . . وأنا - في تبديل ملابسها ، وفي إعدادها لاستقبال أولئك الذين سوف يأتون مع الصباح ليقوموا بتجهيزها للقاء ربها . . . وألقينا على وجهها الذى ظل صبوراً برغم الموت . . . زكياً برغم السقم - ألقينا على هذا الوجه الزكى ، الصبور ، وشاحاً لعانا قصدنا أن يكون شفافاً ، حتى لا يحجبه عنا . ثم . . . ثم عدنا إلى الله .

تناول كل منا مصحفاً كريماً ، ورحنا نقرأ معاً . . . وفوق رأسها . السورة الحبيبة إلى قلبها . . . السورة التى تعودت - من سنين بعيدة - ألا تنام قبل أن تقرأها . . . "سورة يس" . . . ثم رحنا نتنقل فى الكتاب الكريم من سورة إلى أخرى : قلوبنا مع القرآن . . . وعيوننا مع القرآن . . . ودموعنا معها . . . مع الملاك المسجى بيننا .

وبقينا هكذا ، حتى طلعت الشمس . . . شمس أول صباح يطلع علينا ، منذ اثنين وعشرين عاماً ، بدونها .

وهناك . . . وضعنا المصحفين الكريمين حول رأسها . عن يمين وشمال ، ورحنا ننتظر .

وفجأة ، ومن خلال الدموع ، وجدتھا تتداعى أمام عيني . .
صوراً لا حصر لها :

● صورتها وهي تسقط فريسة لمرض خطير أرهق طبييها الأستاذ الشاب الذى تدين له قلوبنا بالعرفان بأنه كان يخوض المعركة ضد ذلك المرض الخطير بكل ما فى أعماقه من شرف الإنسان ، وأمانة العالم ، وبسالة الطبيب ، حتى تمت له محاصرته والانتصار عليه . لكن إرادة الله فى النهاية ، كانت فوق إرادته . . فوق علمه ، وبسالته . وأمانته . . . فوق إرادتنا جميعاً .

● صورتها وهي تقاوم المرض الذى هاجمها ، فى عنف وقسوة ، بشجاعة باهرة لم يكن أحد يعرفها، إلا ويعرف أن هذه الشجاعة الباهرة كانت واحدة من أبرز خصائصها .

● صورتها وهي تمتد ذراعيها فى صبر ورضى شديدين - وعلى مدى أشهر سبعة بلغت من القسوة ذروتها - لتأخذ حقنتين كل ثلاث ساعات ، حتى جفت أوردها تماماً ، وحتى أصبح العثور على وريد صالح لاستقبال جرعة الدواء المقررة معضلة تحتاج من معالجها إلى حذق شديد ، وتحتاج منها إلى صبر أشد . كان الطبيب الجراح ذو القلب الكبير الذى أربى على الستين - يخشى عليها من أن يصيبها انهيار عصبي نتيجة لتقارب مواعيد حقن المضادات الحيوية : حقنتان كل ثلاث ساعات ، طوال الأربع والعشرين ساعة . فلم تكن تكاد تنام ، حتى تعود فتصحو . . . ولا مفر .

وكان الطبيب الباطنى - فى الوقت نفسه - يخشى إن هو باعد بين مواعيد الحقن بحيث يسمح لها بأن تنام ، كما كان يطالب بذلك الجراح ذو القلب الكبير ، أن يتمكن ذلك الميكروب اللثيم الذى غزا دماءها

من أن يحدث بأجهزة جسمها الداخلية : قلبها . . ورئتيها . . وكبدها ،
ما أحدثه خارج جسمها . . فيصيب هذه الأجهزة ” بخراج ” كتلك
التي أصابها بها من الخارج ، والتي كانت آلامها منها تبكى الجراح
نفسه !

وبين هاتين الحشيتين : خشية الطبيب الجراح . . . وخشية
الطبيب الباطني . . كانت هي تبدى من شجاعة الاحتمال ما كان مثار
دهشة أطباءها وإعجابهم .

كان أطباؤها يرونها صغيرة بالنسبة لقوة الاحتمال التي كانت تبديها . .
كانوا ينظرون إليها نظرة هي مزيج من الدهشة ، والإعجاب ، والألم . . .
بعضهم كان يخرج من عندها وقد اعتصرت آلامها قلبه . . . وبعضهم
كان يخرج من عندها مشدوهاً بشجاعته وقوة احتمالها . . والجميع كانوا
يجهلون سرها .

* * *

كان سرها في صلابتها . . . وكانت صلابتها هذه - في ناحية
من النواحي - بعضاً من تركيبها . . وكانت - في ناحية أخرى -
انعكاساً لإيمانها العميق بالله. وربما لم يكن أحد من أطباءها مستعداً
لأن يصدق أن هذه المريضة الصغيرة جداً . . والقوية جداً في الوقت
نفسه . . كانت مؤمنة بالله إيماناً لا يحده حد . . وأنها حينما كانت
لا تزال طالبة في الصف الأول الثانوي ، كانت حريصة حرصاً خاصاً
على أن تفتح كراساتها المدرسية بآيات من القرآن الكريم الا يختارها لها
أحد . . . وإنما كانت تختارها بنفسها لنفسها . . وبوحى من إيمانها
الحالص بالله ، وكتابه ، ورسوله .

● فهذه كراسة تفتحها بالآية الكريمة : « وإذا سألك عبادي

عنى فإنى قريـب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » .

● وهذه كراسة ثانية تفتتحها بالآية الكريمة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

● وهذه كراسة ثالثة تفتتحها بالآية الكريمة : « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » .
وهكذا فى جميع كراساتـها

كل ذلك وهى لم تتجاوز ، بعد ، الرابعة عشرة من عمرها . .
سن اللهو ، واللعب ، والعبث وأكاد أقول سن الجهل بالله ،
وبكتاب الله ، وبتوجيهات الله .

كل ذلك وهى تتلقى تعليمها فى مدرسة فرنسية ، وعلى أيدى
راهبات فرنسيات كانت تجهن ، وتحمل لمن إعجاباً كبيراً إلا أنها ،
مع ذلك ، لم تكن مستعدة ، للحظة واحدة ، لأن تتنازل عن شىء واحد
من معتقداتها الخاصة فى سبيل هذا الحب ، وذلك الإعجاب .

فلقد حدث مرة أن كانت واحدة من هؤلاء الراهبات تحدثها
وزميلاتها فى المدرسة عن الفظائع التى ارتكبها النازيون ضد الفرنسيين
أثناء احتلالهم لفرنسا فى الحرب العالمية الثانية وأسهبـت الراهبة
الفرنسية — مدفوعة بمشاعرها الخاصة نحو ما حدث لوطنها ، ولمواطنيها
على أيدى النازية الغاشمة — أسهبـت فى تبيان صور هذه الفظائع . .
وفى تعديد ألوانها . حتى إذا انتهت من كلامها ، رفعت الطالبة الصغيرة
بِعمرها ، الكبيرة بمواهبها — رفعت يدها طالبة الكلمة ، فلما أذنت
لها الراهبة الفرنسية بها . . فاجأتها قائلة :

● أريد أن أسأل : هل ترين

ثمة فرق بين هذه الفظائع التى حدثتنا

عنها الآن ، والتي ارتكبتها النازيون
ضدكم في أثناء احتلالهم بلادكم ،
وبين ما ترتكبونه أنتم اليوم من فظائع ضد
الوطنيين في الجزائر - أليست هي بعينها
نفس الفظائع ، إن لم تكن أبشع ؟ ؟

وفوجئت الراهبة الفرنسية بالسؤال . . . وفوجئت أكثر بنوعيته . .
وأفقدتها المفاجأة قدرتها على التصرف بالمرونة الواجبة في موقف كهذا
الموقف . . فطلبت إليها مغادرة الفصل فوراً !

ورفضت " نادية " أن تنفذ الأمر . . وأشهرت في وجه الراهبة
الفرنسية سلاحها الصلب الذي اعتادت أن تشهره في مثل هذه المواقف -
أشهرت في وجهها سلاح « العناد » الذي لا يلين . . وصممت ، من
ناحياتها ، ألا تغادر الفصل ، لأنها ترى أنه لم يصدر عنها ما يسوغ
طردها منه .

وكانت أزمة صاحبة . . تدخلت فيها مديرة المدرسة - وهي راهبة
عجوز . . كبيرة القلب والعقل معاً - وكانت تعجب بفتاتنا كطالبة لامية ،
وتحمل لها تقديراً خاصاً . واستطاعت مديرة المدرسة أن تنجح في إقناعها
بمصاحبتها إلى مكتبها لتبقى به قليلاً ريثما تهدأ العاصفة . . وخلال ذلك ،
حاولت « الراهبة الأم » أن تقنع " نادية " بالاعتذار لمدرستها عن إحراجها
أمام زميلات الطالبات . . إلا أن ذلك كان مطلباً مستحيل التحقيق
بالنسبة للإنسان ما تعودت أن تعتذر إلا عندما تكون على يقين من أنها
أخطأت . ولما كانت موقنة من أنها لم تخطئ ، فقد صممت على عدم
الاعتذار . . وفضلت أن تغادر المدرسة كلها عائدة إلى البيت لتطرح

علينا ، بلا أية زيادة أو نقصان ، كل ما حدث منها . . وكل ما حدث لها .

ورأيت أنه من واجبي . . كمصري وكأب - أن أبلغ وزير التربية والتعليم - وكان وقتئذ المربي الجليل أحمد نجيب هاشم - بالمسألة كما وقعت . فأوفد من فوره مندوباً إلى المدرسة ، حيث قام هناك بتحقيق انتهى باعتذار الراحبة الفرنسية للطالبة الصغيرة الكبيرة ، وليس العكس كما كان مطلوباً . ودخلت "نادية" فصلها مرفوعة الرأس . . تسبقها كرامتها التي كانت تعتز بها إلى حد التطرف الذي كان يجر عليها الكثير من المتاعب .

● وتتوارى هذه الصورة . . صورة الطالبة الصغيرة . الكبيرة ، التي تحمل بين جنبها شعوراً وطنياً فياضاً يعلن عن نفسه في شجاعة ، ويصمم على ما اقتنعت به في حزم . . . ولا يكثرث . في قليل أو كثير . بمن يرضى ومن يغضب - تتوارى هذه الصورة من أمام عيني لتحل محلها صورة أخرى . . صورة الإنسانية المرفهة الحس إلى حد لا يكاد يصدق . . إلى حد أجمع معه أطباؤها على أن حساسيتها المفرطة هذه هي التي أورثتها مجموعة الأمراض التي تجمعت عليها . . وأنها هي - أعني حساسيتها المفرطة - كانت السبب المباشر في وقوعها فريسة سهلة لذلك المرض الخطير الذي استطاعت أن تنجو منه ، ولكنها لم تستطع أن تنجو من الآثار النفسية الذي خلفها في أعماقها . وإلى حد كبير كان ذلك صحيحاً ، فقد كانت مرفهة الحس إلى حد كان يرهقنا نحن أكثر مما كان يرهقها . . كانت مرفهة الحس إلى حد

كان يجعلها تحتضن آلام الآخرين وتبناها ، وتعيشها . ففى دفتر مذكراتها الخاصة الذى عثرنا عليه بعد أن كانت قد بارحت حياتنا هذه إلى الحياة الأخرى التى وصفتها - وهى ما تزال فى الرابعة عشرة من عمرها - بأنها : « الحياة الأفضل . . والأكثر شفافية ونقاء » . وبتاريخ الخميس ٧ فبراير سنة ١٩٦٤ - كتبت "نادية" تقول :

● « بكيت اليوم فى الفصل كثيراً .

وكنت أحس ، طوال الوقت ، أن يداً من حديد تقبض على قلبى فتعتصره عصباً . فقد علمت أن "كورين" - صديقة السنوات التسع فى المدرسة - سوف تتركنا إلى إيطاليا . إننى حزينة جداً لفراقها ، فليس من السهل على أن أجد صديقة فى نقائها . لكننى ، فى نفس الوقت ، فرحة من أجلها . فإن مصر لم تعد مكانها الطبيعى . وكانت "كورين" ، فى الأيام الأخيرة ، عصبية جداً ، ومضطربة ، وحائرة . . وأعتقد أنها كانت على حق . على كل حال ، فبرغم حزنى الشديد لفراقها . . أشكر الله كثيراً الذى هباً لما كل الأمور لكى تستقر ، وتهبأ ، وتعتز ، أخيراً .

على سعادتها المفقودة . إننى أتمنى لها
حياة هنيئة بين أهلها فى إيطاليا .
أما أنا . فأشعر بأننى فقدت صديقة
لن أعوضها . وسأظل دائماً أفقدها .
ولكن . هذه هى سنة الحياة » .



... وفى الوقت الذى تسجل فيه " نادية " شعورها « بأن يداً من
حديد تقبض على قلبها فتعصره عصاراً حزيناً على فراق صديقة السنوات
التسع فى المدرسة » - نلتقى بها فى صفحة أخرى من مذكراتها ، وهى
تكاد تترفع سعادة ، لأنها نجحت فى أن تدخل السعادة على قلب إنسان
آخر . . . فتقول فى مذكره يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ :

● « أنا سعيدة اليوم . . . سعيدة
جداً . . . إذ نجحت فى أن أجعل
إنساناً آخر يشعر بالسعادة . لقد
قال لى : شكراً جزيلاً ، ثم ابتسم
ابتسامة ملأت وجهه كله .. وبدالى
كأنه لم يكن يتوقع منى الشئ على
قصيدته التى كان قد أعطانى إياها
لكى أبدى رأيى فيها . وفى خلال
الحديث قال لى . إنه نظم قصيدة
جديدة . وقد شجعته على أن يبعث
بإنتاجه إلى الصحف اللبنانية .

لقد أطاعني كما لو كان طفلي .
 وكما لو كنت أنا مسئولة عنه ،
 ولقد ملأني هذا الشعور بالفخر .
 فكم هو رائع أن تشعر المرأة بأن
 رجالا يحتاج إليها . . . إلى عقلها . .
 احتياجاً حقيقياً . لقد قررت أن
 أواصل تشجيعي له . . . إنني يجب
 أن أدفعه لكي يقهر ترديده ، ويتغلب
 على عدم ثقته بنفسه . . وهو شيء
 يكاد يقتله ، ويقتل معه مواهبه .

* * *

وهكذا نرى أن الحساسية . . . الحساسية بغير حدود كانت داء
 "نادية" ودواءها معاً . في الوقت الذي نراها فيه تكاد تذوب حزناً لأن
 صديقة تحبها سوف تفارقها . . نراها في موضع آخر تكاد تطير سعادة
 لأنها نجحت في أن تسعد إنساناً آخر . . ولأنها استطاعت أن تجعل
 «الابتسامة» تقفز إلى وجه ذلك الإنسان فتملؤه .
 ولقد ذكرني صديق عزيز بواقعة حدثت له معها ، كنت قد
 نسيها . . وتذكرها هوحينما أعطيته أصول هذا الكتاب ليقراها قبل أن
 أدفع بها إلى المطبعة .

في صيف سنة ١٩٦٢ كانت "نادية" عائدة معه بصحبة أسرته
 من بورسعيد ، ومعها «شغالتنا» الصغيرة . . وفي الطريق من
 بورسعيد إلى القاهرة، توقفت الأسرة عند أحد المطاعم المنتشرة على ذلك
 الطريق لتناول الغداء . . وهبطت "نادية" معهم . ولكن الصديق نسي

« الشغالة » الصغيرة فلم يدعها مثلما دعا الجميع لتناول الغداء . . ثم نسي أن يرسل إليها ، حيث بقيت في مكانها من السيارة ، شيئاً تأكله . فإذا كان رد الفعل عند فتاتنا التي اعتادت أن تعيش أحزان الآخرين وأفراحهم ، وكأنها أحزانها الخاصة وأفراحها ؟

لقد اعتذرت عن تناول الطعام ، على الرغم من أنها لم تكن قد أفطرت . . . وعندما عاد الجميع إلى السيارة لمتابعة رحلتهم إلى القاهرة لاحظ الصديق أن « نادية » قد صامت عن المشاركة في أى كلام ! ولما أن وصل الجميع إلى بيتنا ، غادرت « نادية » السيارة دون أن تسلم أو تشكر ، الشيء الذى جعل صديقنا يشعر بأن شيئاً ما قد حدث جعلها تتصرف على هذا النحو الذى لا يتفق وما يعرفه عنها . . لكنه لا يعرف ماهو هذا الشيء ؟

وصارخنى الصديق العزيز بما وقع من « نادية » وسألنى : « هل عرفت لماذا حدث هذا ؟ » . لكن « نادية » لم تكن قد أفضت إلى بشىء من كل ما حكاه لى صديقنا ، فاستمهلته حتى أسأله . . ثم أجيبه عن سؤاله .

وسألها وكعادتها من الصراحة والصدق ، لم تنكر شيئاً مما وقع - قالت لى :

نعم لقد رفضت أن أتناول طعام الغداء ورفضت بعد أن عدنا إلى السيارة أن أشارك في أى كلام ورفضت حين وصلنا إلى المنزل أن أسلم أو أشكر . كل هذا حدث . ولكن ، لم يكن في مقدورى أن أفعل شيئاً غير ما فعلت .

- ولكن . . لماذا هذا كله ؟

- بصراحة . . لأنه لم يدع « الشغالة » لتناول الغداء . . ولم

يرسل لها في السيارة شيئاً تأكله . . وقد فكرت للحظة أن أرسل إليها مع
الحرسون على حسابي الخاص شيئاً تأكله ، لكنني عدت فعدلت عن هذه
الفكرة ، لأنني خشيت أن ترى فيها جرحاً لمشاعر صديقك . . وفكرت .
للحظة أخرى ، أن أنبهه إلى وجود « الشغالة » في السيارة . وإلى أنها
مثلنا تماماً ، لم تتناول طعام الإفطار . لكنني خشيت أن أخرجها مع
نفسه ، فعدلت عن هذه الفكرة أيضاً . . ولم يكن أمامي ، لكي أرضى
نفسي ، إلا أن أشارك « الشغالة » الصغيرة جوعها .

قات متسائلاً :

— والصيام عن الكلام ؟

قالت :

— كان نتيجة طبيعية لما حدث . لقد غامت نفسي . وأنا لا أقدر
عندما تغيم نفسي أن أكلم أحداً ، ولا أن أرد الكلام على أحد .
ونقلت إلى صديقنا الصورة كما صارحتني بها ” نادية “ . . فلم
يسعه إلا أن يعتذر ، وهو يضيف :

— ولكن هذه حساسية قاتلة !!

قلت :

— أنا معك في هذا . . . ولكن ، هكذا خلقت . . . ولا حياة لنا
معهما ، كما لا حيلة لها مع نفسها .

* * *

وإن نسيت ، فلن أنسى صورتها يوم حملت إلينا صحف الصباح
ذات يوم ، ذلك النبأ المشئوم بسقوط الطائرة التي كانت تحمل فريقي
السلاح المصري في المحيط ، وهي في طريقها إلى أمريكا . لقد كنا
ساعتمها جالسين على شاطئ البحر في الإسكندرية . . . وكأى فتاة في
مثل عمرها ، كانت ” نادية “ ، في تلك اللحظة ، تعيش قمة سعادتها

ومرحها . . . إلى أن شد النبأ الأليم انتباهها إليه ، فإذا هي تفقد كل سعادتها . وكل مرحها دفعة واحدة . . . ثم انخرطت في بكاء مرير استغرقها ساعات طويلة ، وكأن كل واحد من أولئك الأبطال الذين ابتلعهم المحيط كان شقيقها أو قريبها . . . على الرغم من أنها لم تكن تعرف منهم أحداً . . . ولم تكن قد قابلت منهم أحداً !

وعبثاً ذهبت كل محاولاتنا للتخفيف عنها . . . فقضت يومها كله مستسلمة لحزن طاغ منعها من كل طعام ، وكل شراب . لقد استطاعت من خلال وعيها المبكر ، أن ترى الكارثة التي أصابتنا بفقد أولئك الأبطال في حجمها الحقيقي ، وهي أنها « كارثة وطنية » ، ليس من السهل تعويضها . لقد حدث لها هذا في الوقت الذي مر فيه آلاف من الفتيات . ممن هن في مثل عمرها ، بذلك النبأ الأليم دون أن يتوقفن عنده . . . أو لعلهن قد توقفن عنده لحظات لم تكن كافية لأن تذهب بشيء من سعادتهن ، ولا من مرحهن !

* * *

وما حدث لها بسبب سقوط طائرة فريق السلاح في قاع المحيط ، تكرر حدوثه لها . . . وبالصورة نفسها . . . يوم لقي السباح العربي « محمد زيتون » مصرعه في حادث سيارة حينما كان في طريقه إلى الإسماعيلية للاشتراك في سباق قناة السويس الدولي . لقد حزن « نادية » الحزن نفسه ، وبكت البكاء نفسه . . . وكنا نحن الذين نعرف أثر مثل هذه الأحزان الكبيرة والمفاجئة على صحتها ، نشفق عليها منها كل الإشفاق . لكننا لم نكن نملك ، إزاء طبيعتها التي نعرفها ، إلا أن نتركها لأحزانها حتى تستطيع هي أن تنتزع منها نفسها بنفسها .

* * *

سألتني في أثناء حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وبعد أن سمعت ادعاء يقول : « إن قواتنا تحارب ، الآن ، على خط الدفاع الثاني » :
 — ماذا يعني المذيع « بخط الدفاع الثاني » ؟
 قلت :

— يعني العريش . . .

قالت :

— معنى هذا أن سيناء كلها سقطت .

قلت ، والمرارة في حلقى . . وعلى لساني :

— نعم . . . هذا هو معنى الخبر .

وما هي إلا لحظة حتى قد كانت انفجرت في بكاء هستيري لم نستطع أن نخفف منه ، ولا أن نتغلب عليه ، إلا بإعطائها منوماً أنامها حتى صباح اليوم التالي :

ولذلك . . . فإنه لما استشهد الفريق عبد المنعم رياض في فبراير سنة ١٩٦٩ ، وكانت ما تزال في سرير المرض بالمستشفى ، كان همنا كله منصرفاً إلى منع الصحف عنها . . . وإلى التنبيه على مرضيها وزائريها بأن لا يأتي أحد منهم على ذكر هذا النبأ أمامها . . . وقد ظلت على غير علم به حتى غادرت المستشفى إلى البيت . . . فقد كنا ندرك — من خلال معرفتنا بها ، وبحسيتها التي عذبناها وعذبتنا — أن معرفتها بهذا النبأ ، وهي ما تزال راقدة في سرير المرض ، كان كان يمكن أن يتحول إلى ضربة قاضية كفيفة بأن تجهز عليها .

* * *

لقد كان عقلها الذي رأيناها يسابق عمرها ، ويتجاوزه ، ويتفوق عليه ، يضعها في دائرة واسعة من الاهتمام بالإنسان ، وبقضاياها .

وبانتصاراته . ولم يكن اهتمامها هذا محدوداً بوطنها ، ولا بالإنسان في ذلك الوطن . . . بل كان اهتماماً إنسانياً واسعاً يتسع للإنسان من كل جنس ، ودين ، ولغة .

ولعل مجموعة من « الصور الفوتوغرافية » وجدناها تحتفظ بها بين أوراقها الخاصة ، تكون مؤشراً واضحاً لاهتماماتها ، ولطبيعة هذه الاهتمامات ، وذوعها .

فلمن كانت هذه الصور التي كانت « فئاتنا » تحتفظ بها بين أوراقها ؟

● لقد كانت هناك صورة « للحاجارين » أول رجل ارتاد الفضاء في محاولة من جانب الإنسان للانتصار على الطبيعة ، والوصول إلى القمر .

● وثانية « لفالنتينا » أول امرأة ارتادت الفضاء مؤكدة بعملها هذا مساواة شجاعة المرأة بشجاعة الرجل .

● وثالثة « لمارتن لوثر كينج » الزعيم الزنجي المناضل عن زواج أمريكا . . . وعن حقوقهم المشروعة في الحياة ، والكرامة الإنسانية .

● ورابعة للشابة الجزائرية المناضلة « جميلة بو حريد » التي لقيت من ألوان التعذيب على أيدي سلطات الاحتلال الفرنسي لبلد المليون شهيد ، ما جعل منها مثلاً رائعاً لكل الذين يحبون أوطانهم ، ولا يطيقون رؤيتها راسغة في قيود الاستغلال والقهر .

● وخامسة للزعيم الجزائري « أحمد بن بيلا » الذي قاد شعبه في ثورة من أعظم ثورات الشعوب من أجل الحق ، والكرامة ، والحرية .

● وسادسة لأول راهب بوذي حرق نفسه احتجاجاً على حرب « فيتنام » التي أشعلتها أمريكا لكي لا تنجى من ورائها إلا أكثر الثمرات مرارة .

إنها — كما ترى — مجموعة من الصور ليس بينها تنافر ، ولا تناقض .
 ولا تباعد . . . فجميعها للإنسان ، وعن الإنسان . . . وجميعها تمثله
 في أحسن صورة . وأدقها تعبيراً عنه كقوة هائلة قادرة على قهر الصعاب
 ومغالبة التحديات التي قد تقف عقبة في طريق مكاسبه وانتصاراته
 سواء كانت هذه التحديات من صنع الطبيعة ، أو من صنع الطغاة من
 البشر !

وكما كانت "نادية" قادرة، بحساسيتها هذه، على أن ترتفع بمشاعرها فوق عصبية الدين، والجنس : واللغة . كذلك كانت قادرة . بنفس هذه الحساسية . على أن تسقط من حسابها عنصرى الزمان والمكان . لتعيش آلام أناس لم ترهم : ولم تعرفهم . . . أناس عاشوا قبل أن تولد هى بعشرات السنين ، ومضوا عن الدنيا دون أن يجمع بينها وبينهم لقاء . ودون أن تنشأ بينها وبينهم صلة إلا صلة الإنسان بالإنسان .

ففى هذه المذكرات نفسها - وجدناها تخصص ثلاث صفحات كاملة، سجلت فيها مشاعرها الخاصة بخومأساة الرسام الهولندى "فان جوخ" وما لقيه فى حياته من عذاب : وجحود : ونكران .

لقد مات "فان جوخ" قبل أن تولد "نادية" بنصف قرن ويزيد ، ومع ذلك ، كانت - فى ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ - ما تزال تحيا مع "فان جوخ" . . . تعيش عذابه . . . وتتوجع من أجله . . . وتتوعد الذين جحدوه ، وكانوا سبباً فى شقائه . . . بأشد عقاب !!

فتحت هذا التاريخ : ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ - كتبت "نادية" فى مذكراتها تقول :

« صهرتنى مأساة "فان جوخ" . . . بل أدمتنى ، وزادتنى خوفاً من المجهول . ولست أريد بتلك الكلمات أن أتحوّل إلى جوهر ذاتى . ولكن ، وددت فقط أن أسجل أنى شعرت أنى جد قريبة من هذا الرجل الفنان . . . لا يفصلنى عنه سوى خيط واه . . . أجل ،

فإني أشعر أن ما يفصل بيننا هو دلت
الحيط الرفيع الذي يفصل بين الوجود
والعدم .

« ولست أبالغ إن أنا قلت إني
شعرت بروحي تهفو إلى روحه ، وتتجه
إلى قبره ، وتحاول ، قدر استطاعتها ،
تخفيف آلامه . . بل شقائه . ذلك الذي
لم توجد بعد الكلمة التي تدلنا على مقدار
عذابه ، وآلامه ، وجوعه ، وتعاسته ،
وفقره ، وحرمانه ، وضياعه ، وبؤسه ،
ومراته ! !

« نعم . . أين هي الكلمة التي
تجمع ، وتضهر ، كل هذه المعاني في
كلمة واحدة ؟ ؟

« لقد أحسست بالضياع ،
وبالشقاء ، وأنا أقرأ . . بل وأنا أحيأ
حياة " فان جوخ " - لقد مس قلبي
في قصة ذلك الفنان التعس المسكين ،
العطف المتبادل بين الشقيقتين " جوخ "
و " ثيو " . . لقد أكبرت كلا الأخوين .
« إني لعمري ما تجاوزت مع شيء
قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة
من حياة تقطر أسى ومرارة . . لقد
أحسست بالكراه الشديد . . بل بالفت

”الجوجان“ . . فقد أحسست ، وأدركت
 أن هذا الملعون هو السبب في أول نوبة
 أصابت ”فان جوخ“ . . . ثم إن هذا
 ”الجوجان“ ، الذى اشتهر بحب تعذيبه
 لأصدقائه ، هو الذى زاد الطين بلة ،
 في الوقت الذى تعلق به ”فان جوخ“
 لينتثله من مرارة الإخفاق التى كان
 يحسها ، ويتذوقها ، ويتخذها غذاء
 يعيش عليه .

« لقد كنت أشعر بالمرعدة تسرى
 في أوصالى ، وبالحوف يزلزل كيانى ،
 مع كل نوبة كانت تصيبه . وتمنيت
 لو أنى كنت بجانبه ، فلربما كنت
 أستطيع أن أفعل له شيئاً .
 » لقد أثر في نفسى كثيراً أن هذا
 الفنان لم يقدر إلا بعد أن طواه الموت .
 من منا يتخيل أن هذا الفنان العظيم
 لم تبع له في حياته سوى لوحة واحدة ؟
 من منا يصدق أن هذا الفنان العظيم
 لم يأخذ في حياته . . ولم يتكسب من
 وراء لوحاته . . سوى عشرين جنيهاً
 فقط . . ؟ !

« كل ما أستطيع أن أقوله إن الناس
 الذين كانوا يحيطون به ، قد عدموا

الإحساس الفنى . . . أى الإنسانى .
 « وددت لو دمرت كل من أسهم
 فى تدمير ” فان جوخ“ . . وددت
 لو ذبحت ”جوجان“ بالموسى كما لم
 يستطع ” فان جوخ“ أن يفعل . . .
 ولو فعل ، لكان الحق فى جانبه .

« لقد شعرت بالخوف ، وبالرهبة ،
 تهدّنى . فالمخاوف . . والمتنافات التى
 كانت تناديه ، تناديني أنا أيضاً .
 إننى أسمعها سمعاً حقيقياً لا خيالا .
 وأشعر بالخوف من المجهول الذى تربص
 له يؤرق مضجعى . .

« لا أستطيع أن أقول إلا أن
 هناك روابط قوية تربطنى بهذا الإنسان
 وهناك سؤال تساءله ” فان جوخ“
 كثيراً .. هو نفس السؤال الذى تساءلته
 أنا نفسى مراراً كثيرة . . وهو : لماذا
 حكم على الفنانين بالتمرغ فى أحضان
 الجوع والألم ؟ لكن الجواب وضع من
 خلال حياة ” فان جوخ“ نفسه . وهو
 أن الألم النابع من أعماق الفنان ذاته . .
 أو الذى ينعكس عليه من أعماق
 الآخرين ، هو الذى يزيد من رقة
 إحساسه . . ومتى استطاعت الحساسية

أن تعبر عن نفسها بطاقات خلاقة
كان الخلود .. فالنفس التي تتألم هي النفس
التي تحس ، ومن ثم .. فهي النفس
التي تخلق فناً يبهز .

* * *

كلمات - للحق وحده - محلقة ، جميلة ، وغريبة . . .
وأغرب منها ، صدورها عن إنسانة في مثل عمرها . لم تكن ، وقت
أن أحسها ، وكتبها ، قد أنهت دراستها الثانوية . . وبالتالي لم تكن
قد أكملت ، بعد ، السابعة عشرة من عمرها . . .

ولكن . . عندما نتوقف قليلاً لتأمل قولها : « النفس التي تتألم
هي النفس التي تحس . . ومن ثم ، فهي النفس التي تخلق فناً يبهز »
عندما نتوقف قليلاً لتأمل هذه الكلمات ، لانجدة ثمة وجهاً للغربة .
فلقد كانت "نادية" - على وجه اليقين - تحمل نفساً تحس ، وتتألم ،
وتعيش الألم حتى ذروته . . كانت تحمل نفساً كالمرآة المصقولة ينعكس
عليها كل شيء ، حتى الألم ، بشكاه الحقيقي ، وبحجمه الحقيقي .
لا تزيفه ، ولا تحذف منه ، ولا تضيف إليه . ومن ثم ، فليس غريباً
مطلقاً أن نجد لها ، وهي ما تزال في هذه المرحلة الباكرة من العمر ،
قادرة على التعبير عن مشاعرها بمثل هذه الكلمات الجميلة المحلقة . .

وربما يقال إن ذلك الجمال الفني البادى في تلك الكلمات التي
عبرت بها "نادية" عن مشاعرها نحو "فان جوخ" ومأساة حياته ،
كان وليد لحظة انفعال شديد بمأساة الرجل الفنان . . . وربما يقال أيضاً
إن هذا الجمال الفني البادى في قدرتها على التعبير عن نفسها ، إنما
يرجع - بالدرجة الأولى - إلى أنها كانت تملك نفساً تتألم ، وتحس ،

وقادرة - لأنها تتألم وتحس - على أن تخلق فناً يبهـر .

وليس من شك أن في كلا القولين بعض الحقيقة . . . أما الحقيقة كاملة ، فهي أنها - إلى جانب حسها المرهف إلى حد لا يوصف . . . وإلى جانب نفسها التي كانت تتألم ، وتحس ، وتقدر ، بالتالى ، على أن تخلق فناً يبهـر - إلى جانب هذين العنصرين اللذين أعدهما أساسين في تكوين الإنسان الفنان - كانت تملك موهبة أدبية مبشرة . . وكانت موهبتها هذه أكبر من عقلها . . . وكان عقلها ، بدوره ، أكبر بكثير من عمرها .

فبعيداً عن الانفعال بأية مأساة فادحة أو هينة . . . وبعيداً عن العيش في أى ألم سطحي أو عميق . . . نجدها - وهي ما تزال في المرحلة الإعدادية - تنتهز فرصة "عيد الأم" لتقدم لأُمها ، بهذه المناسبة ، هدية صغيرة . . هدية تتناسب وقدرتها الخاصة على تقديم الهدايا : بطاقة جميلة .. زينتها من عندها بهذه العبارات التي إن أكدت - فوق رهافة حسها - شيئاً ، فإنما تؤكد أصالة موهبتها . . واستعدادها الكبير فيما لو أمهاتها القدر ، لأن تصبح في « دنيا الأدب » شجرة يانعة . . . شجرة وارقة الظلال . . موفورة الزهر . . موفورة الثمر .

ولنقرأ معاً هذا الذى انتهزت "نادية" فرصة "عيد الأم" لتكتبه لأُمها :

● « أُمى الحبيبة . . .

«أنهز هذه الفرصة السعيدة التى
تتناجى خلالها قلوب الأمهات مع
قلوب الأبناء بأنغام حاملة تنبعث عن
قيثارة حنون . . من القلب . . قلبك

الكبير المفعم بالحب ، وما أعظم حبك
 المفعم بالآمال - وما أكثرها - أفلاذاتك
 من أجل مستقبل مشرق يشع نوراً ،
 وسعادة ، وأملاً ، وإيماناً . . . إيماناً
 بالله سبحانه . . وبالوطن .

» أمى الحبيبة

» ماذا ترانى مستطبعة أن أقول ؟
 ماذا ترانى مستطبعة أن أقول لك . . .
 ولقلبك الكبير الذى يعطى ، ويعطى . .
 من دون أن يطلب ، ولن يطلب .
 أقول إننى أحبك . . ؟ إن حبي لك ،
 مهما كبر ، لن يوفيك حقك . ؟ ؟
 أقول إن كل خلجة فى تسبّح باسمك . .
 وتنفض بحبك ، وبحمدك . . ؟ إن هذا
 أيضاً لا يكفى .

» إننى فى حيرة . . . هل
 هربت الكلمات منى ؟ ؟ لا . . .
 لم تهرب الكلمات منى ، وإنما الذى
 هرب هو قدرتها على التعبير عما
 تستحقينه أنت بالذات . . وتستحقه
 معك كل أم . وإذن . . . وما دمت
 عاجزة - عن طريق الكلمات -
 عن أن أقول لك ما أريد أن أقوله . . .
 ... فلنكتفى بأن أجدد العهد .. وبأن

يتناجى قلبانا على أنعام مقدسة من
قيثارة الله .
”نادية“

تلك كانت موهبتها ، وأمنيتها : أن تعبر — بحمال — عن كل
ما هو جميل . . . عن الخير ، والحب ، والشوق ، واللهفة ، والألم . .
وذلك كله ، في النهاية ، هو «الأدب» . . الأدب الذي كانت ”نادية“
تعشقه ، وتهواه ، وتتمنى أن تصبح فيه شيئاً ملحوظ القدر . ملحوظ
المكانة — فتكتب . في مذكراتها الخاصة ، معبرة عن هذه الأمنية التي
تراودها :

● « إن قلبي يفيض بالسعادة ،
لأن القدر قد حباني بأبوين أتاحا لي
فرصة التعليم في مدرسة من مدارس
اللغات . كما كان لاهتمام والدي بالأدب ،
دور خاص في امتلاء مكتبة بيتنا
بالكتب الثمينة ، والغنية بالمعرفة في شتى
مجالات الأدب ، والعلوم ، والفنون .
وبذلك فقد توافرت لي إمكانيات التفوق
في اللغات الأجنبية ، والثقافة العالية .
وهما ، في رأيي ، الدعامتان الحقيقيتان
اللتان أستطيع بهما أن أثبت مكانتي في
عالم الأدب . فأصبح شاعرة ذائعة

الصيت . . أو قصصية راسخة القدم .
 وذلك شيء ليس بالمستبعد تحقيقه .
 فإني أشعر بأن الله قد منحني ، فعلا ،
 موهبة الكتابة . . . وإني لأحس بها
 تملأ على نفسي كلها . . وكياني كله .»

لم تكن "نادية" تقف من موهبتها التي شعرت بأنها تملأ عليها نفسها كلها ، وكيانها كله - موقف المتفرج . . موقف من يبذر في الأرض بذوراً ثم يقعد بجوارها ساكناً ساكناً ، في انتظار أن يأتيه الحصاد بلا جهد . ولا تعب ، ولا عرق .

لم تكن "نادية" تقف من موهبتها هذا الموقف السلبي . وإنما كانت تنميها ، وتتعهدها ، وترعاها . كانت تنميها بالقراءة الجادة لأعلام الأدب الفرنسي الذي كانت تتعلمه ، وتعشقه ، وتحبه . . وكان طبيعياً نتيجة لهذا الحب ، أن تحقق فيه ، كتابة ، وقراءة ، ودراية عميقة به وبأعلامه ، تفوقاً ملحوظاً .

ولم تكن "نادية" تكتفي بالقراءة "لراسين" . . و "فيكتور هوجو" "وفولتير" و "موليير" . . و "سارتر" . . و "مارلو" . . و "موروا" . . وإنما كانت تحتفظ لنفسها برأى خاص ومشاعر خاصة نحو كل من هؤلاء الأعلام . . . في الوقت الذي كانت تعشق فيه "لامرتين" . . كانت ترى "لبودلير" . . وتتأفف من أخلاقيات "فولتير" ، وتنطوي على إعجاب عميق "بألبير كامى" الذي حزنه عليه يوم لقي مصرعه في حادث سيارة حزناً شديداً ، وكأنه صديق حميم كانت تراه كل يوم ، وتجالسه ، وتسرع إليه بالأمها ، وآمالها . وكان أعظم ما نفذ "بألبير كامى" إلى قلبها ، ليس فكره المنطلق فحسب ، بمقدار ما كان تعاطفه مع ثورة الجزائر ، وشعب الجزائر الذين كانت تحملهما من وجدانها المتفتح مكاناً رفيعاً ، هو السبب الأعظم الذي شدّها إليه ، وأبكأها من أجله .

كذلك لم تكن "نادية" تكتفي بالقراءة لهؤلاء الأعلام الذين كانت تعشق أديبهم ، وتعشق أعلامهم . . وتعشق أكثر الذي كانوا يكتبونه .

بل كانت تناقشهم في كل ما كانوا يكتبونه . . . وكانت كتبهم الغالية الثمن التي كانت حريصة على أن تشتريها - برغم ارتفاع ثمنها - من مصروفها الخاص . . . كانت هذه الكتب حافلة بتعليقاتها الخاصة ، تملأ بها هوامشها ، اختلافاً أو اتفاقاً . . . رفضاً أو قبولاً ، لأفكار هؤلاء الشوامخ . وما منعها حبها لهم ، وإعجابها الشديد بما كانوا يكتبون - من أن تقول فيه رأياً الخاص بصراحة وشجاعة ، على الرغم من كونهم شوامخ تعنولهم الجباه .

* * *

على أن الأدب الفرنسي ، والأدباء الفرنسيين ، لم يكونا المنهل لعذب الوحيد الذي تنهل منه روحها المتعطشة دوماً إلى المعرفة . . . بل كان الأدب العربي ، والشعراء العرب على وجه الخصوص ، منهلها العذب الآخر الذي كانت روحها تنهل منه . ، وتتغذى عليه .

ولقد كان "لنادية" في شعراء مصر الكبار رأى ، بل آراء . . . كثيراً ما دار بيننا نقاش طويل حولها . ولا أذكر أنني أفلحت كثيراً في تغيير آرائها . . . فلقد عرفناها عنيدة بصفة عامة ، وكانت أشد ما تكون عناداً فيما يتعلق بالآراء التي كونتها لنفسها . . . فلم يكن سهلاً أن تنزل عنها إلا أن يكون ذلك عن اقتناع كامل . وكانت ذات نفس طويل في المناقشة . . . ويرجع هذا ، بالدرجة الأولى ، إلى ميل طبيعي فيها . . . ثم إلى حصة « المناقشة المفتوحة » التي كانت تأخذ بها مدرستها . وإذا كان حب المناقشة ميلاً طبيعياً فيها ، فقد جاء هذا المهاج من التعليم فأنضح من هذا الميل ، وزاده تأصلاً في نفسها .

لقد كان لها في "أحمد شوقي" رأى . . .

وكان لها في "حافظ إبراهيم" رأى ثان . . .

وكان لها في "سامى البارودى" رأى ثالث . . .

● كان رأيها في "شوق" أنه عميق . . . ولكنه ليس « ساخناً » .

وكانت تراه يتناول القضايا العامة بأسلوب من لا يريد التعمق في الخوض فيها . وتشبهه برجل ينزل إلى البحر وهو خائف منه ، فتراه ملتصقاً دائماً بالشاطئ حتى لا يجره البحر إليه فيضيع بين أمواجه !!

— وكان رأيها في "حافظ إبراهيم" أنه حزين أكثر مما ينبغي بل كانت تراه « قائماً » . وكنت أقول لها ، مدافعاً عن « شاعر النيل » :

— إن الحزن صفة أصيلة فينا نحن المصريين ، وإن أغانيها نفسها حزينة . وبهذا المعيار فإنه يمكن عد "حافظ إبراهيم" شاعر قومه .

وأذكر أنها خالفتنى هذا الرأى قائلة :

— إن الشاعر . . . أى شاعر . . . لا يغنى لقومه وحدهم ، وإنما هو يغنى للناس كلهم . . . وللحياة نفسها . والحياة ليست حزناً فقط . . . بل هى حزن وفرح . . . دمة وابتسامة . . . هزيمة وانتصار . إن الشاعر عندى كالرسام سواء بسواء . . . وكما يستطيع الرسام أن يعبر بريشته عن « الحريف » الذى يجرد الأغصان من كل ورقة خضراء فيها ، فإنه يستطيع فى الوقت نفسه . . . وبالريشة نفسها . . . أن يعبر عن « الربيع » الذى يملأ الدنيا كلها بالزهر ، وبالعطر .

لكن "نادية" ، على رأيها هذا فى « شاعر النيل » ، كانت تدوب شغفاً بقصيدته : « مصر تتحدث عن نفسها » . وإنى لأذكر أنها حدثتني يوماً حول هذه القصيدة ، فقالت : « إن فيها بيتين أشعر فى كل مرة يمران فيها بخاطرى أنى أريد أن أبكى ، ولست أدري لماذا . . . إنهما البيتان اللذان يقول فيهما "حافظ إبراهيم" بلسان مصر :

نا إن قَدَّرَ الإله مماني لا ترى الشرق يرغع الرأس بعدى «
 «مارماني رام وراح سليماً من قديم رعاية الله جندي «
 وقلت فما .

— ربما يكون السبب الكامن وراء شعورك هذا ، أنك تحبين
 بلدك حباً عظيماً . . .

قالت . وقد اكتسى وجهها بإشراقة من الرضا لهذا التفسير :
 — ربما . . .

• • •

أما "محمود سامي البارودي" فكان في رأيها أكبر من أن يكون
 مجرد "شاعر" . . . كانت تراه بطلاً وطنياً عظيماً . . . وكان اعتداده
 بنفسه . وبتاريخه . وبكرامته كإنسان وجندي — برغم المنى . والاضطهاد .
 والتشريد — مشار إعجابها الشديد به كإنسان . وبطل . وشاعر . . .
 كانت تقول : «إن البارودي ليس أشهر شعرائنا الكبار ، ولكنه —
 في رأي — أعظمهم» . . . وكانت دائماً التزم ببيتين من قصيدته :
 «سرنديب» التي يصف فيها "البارودي" حاله في المنفى . . . والتي كانت
 تستذكرها كواحد من النصوص الأدبية المقررة عليها في مرحلة الثانوية
 العامة — وهذا البيتان هما :

«فكم بطل فلَّ الزمان ثباته وكم سيد دارت عليه الدوائر»
 «وأي حسام لم تصبه كلاله وأي جواد لم تخنه الحوافر»

• • •

ومن الشعراء العرب الآخرين : كانت "نادية" تعشق الشاعر التونسي

« أبو القاسم الشابي » الذي رحل مثلها ، في زهرة العمر وسأعز
 اللباني بشاره الخورى « الأخطل الصغير » . وقد وجدت بين أوراقها
 الخاصة ، بعد وقاتها ، قصاصة من صحيفة تحمل من شعر
 « أبو القاسم الشابي » هذه الأبيات التى أحسبها قد احتفظت بها بين
 أوراقها الخاصة ، لأنها رأت فيها تعبيراً عما كان يدور فى أعماقها :
 « نحن نمشى ، وحولنا هامة الأكوان تمشى ، لكن لأية
 غاية ؟ »

« نحن نشدو مع العصافير للشمس ، وهذا الربيع ينفخ نايه »
 « نحن نتلو رواية الكون للموت ، ولكن ماذا ختام الرواية »
 « هكذا قلت للحياة فقالت : سل ضمير الوجود كيف
 البداية ؟ »

أما بشاره الخورى « الأخطل الصغير » — فكانت تعشق فيه رفته ،
 وقدرته التى كانت تقول إنها لا حدود لها على تجسيد الصور
 وتضرب مثلاً لذلك قول « الأخطل الصغير » فى قصيدته : « الصبا . . . والجمال » :
 « قتل الورد نفسه حسداً منك وألقى بدماءه فى وجنتيك »
 « والفراشة ملأت الزهر لما حدثتها الأنسبام عن شفقتك »
 إلا أن « نادية » كانت تخالف « الأخطل الصغير » الرأى فى
 مطلع هذه القصيدة نفسها ، إذ يقول الشاعر فيه :

« الصبا والجمال ملك يديك أى تاج أعز من تاجيك »
 وكانت تبني مخالفتها للشاعر على أساس أن تاج المرأة الأعز ،
 إنما هو « العفة » . . . أما « الصبا . . . والجمال » فلم يكونا ، فى رأيها ، تاجين يتضاءل

بجانبيهما كل تاج آخر . فقد تكون المرأة — على حد قولها — « جميلة »
أروع ما يكون الجمال . . . وقد تكون « صبية » أنضر ما يكون
الصبا . . . ولكن ، ليس لها إلى جانب ذلك شيء من « العفة » . . .
وفي هذه الحالة لا تخرج ، في رأيها ، عن كونها « زهرة في الوحل » !!

* * *

لقد كانت المناقشة معها تلذلي ، على الرغم من أننا كثيراً ما اختلفنا
وتباينت آراؤنا . . . لكن عقلها الذي كنت أراه يكبر ، ويكبر ،
حتى ليسبق عمرها بمسافة طويلة . . . طويلة . . . كان يملأني سعادة به
وبها . . . ولطالما خرجت من خلال مناقشاتي معها بأفكار لمقالاتي
كانت — من ناحيتها — لا تنجني اعتزازها بأنها من نتاج مناقشاتهما معي .

* * *

وكما كانت «نادية» ترعى موهبتها الأدبية ، وتنميتها بالقراءة
الجادة في شتى ألوان الأدب ، والعلوم ، والفنون . . . فإنها كانت
ترعاها ، وتنميتها بالوجه الآخر من وجهي الرعاية والتنمية : « بالكتابة » . .
فعالجت « الكتابة » شعراً ، ونثراً ، وحتى القصة ، كانت لها فيها
هي الأخرى محاولاتها التي يمكن اعتبارها — بغير مجاملة أو تحيز —
محاولات ناجحة ، وناضجة .

وعلى الرغم من أن « نادية » كانت قد عالجت كل ألوان الكتابة :
النثر . . . ، والشعر . . . والقصة . . . فإن اختيار « القالب » الأخير
الذي كانت تود أن تستقر عليه ، كان لا يزال بالنسبة لها مشكلة تسبب
لها حيرة شديدة . فتجدها في مذكرة يوم الثلاثاء ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٤
تكتب كاشفة عن تلك الحيرة التي كانت تعانيها :

● « إنني أحس كأنني تأهية
 في صحراء لا أدري ماذا أفعل . . .
 » فأنا أريد أن أكتب . . .
 لا شيء إلا أن أكتب . . ولكن، أي
 شيء أكتب . . ؟

« هل أكتب أشعاراً . . أم أكتب
 قصصاً . . أم أكتب نثراً ؟ لم أعد
 أعرف بالضبط ماذا أريد أن أكتب .

« في بعض الأحيان ، أشعر
 أنني أريد أن أكتب شعراً ، لكنني
 أحس أن الخيال لا يسعفني . وفي
 بعض الأحيان أشعر أنني أريد
 أن أكتب القصص ، ولكنني أشعر
 أن المادة العميقة التي أستطيع أن أصنع
 منها قصة جيدة ، تنقصني . عندي
 الإرادة . . ولكن ، ليس عندي الخبرة .
 عندي الأسلوب . . ولكن ، ليس عندي
 المادة .

« إنني أشعر بأنني أكاد أختنق ،
 فسهل جداً أن يمشي الإنسان في طريقه
 ولكن الصعب ، حقاً ، هو أن يعرف
 الإنسان كيف يختار ذلك الطريق ! »

ومعها . . . مع الإنسانية الحساسة ، كأنها طير على فن . . الرقيقة
 كأنها جدول ماء يتفرق . . نتوقف قليلا لنقرأ لها هذه السطور التي
 أفضت بها إلى مذكراتها الخاصة بعد أن كانت قد فرغت لتوها من
 امتحان الثانوية العامة :

● « بزغ فجر يوم جديد وضاء
 ينضح بالبشر وبالأمل . أنسام اليوم
 الحديد تخطر إلى نافذتي فتعطرني
 بشذاها . وكانت الطيور تملأ الجو من
 حولي بغنائها كأنما تزف إلى خبر نجاحي
 الذي طالما سهرت الليالي ، وسكبت
 الدموع لأناله . ونسيت . . نسيت
 حاضري ، ورحلت أتخيل الأيام الآتية ..
 ودخلت مع نفسي في محاولة لرسم
 نقاطها :

« كانت آمالي هي التي تمسك
 بخيوط أفكاري ، وتحركها في الاتجاه
 الذي تريده . وكان أعظم آمالي ،
 هو أمل في العمل على إسعاد تلك التي
 أمضت الليالي الطوال ساهرة إلى جوارى
 تمنحني من تشجيعها قوة لنفسي الواهنة .
 ومن دعواتها أملا لروحي الظامئة .
 إنها أمي ، وما أعظمها من أم . . كانت
 تحمل إلى في الليل الطويل ما أطلب ،
 وما لم أطلب . كانت تقاوم تعبها الخاص

لتجدد نشاطى . . وتزيدنى رغبة فى
 النهل من دروسى . كانت تحاول جاهدة
 إخفاء إرهاقها وراء ابتسامة شاحبة ،
 كانت تبذل جهداً خاصاً لكى ترسمها
 على شفيتها اللتين كانتا تتحركان فى
 ابتهال صامت إلى الله أن يبلغنى أمنياتى .
 لكن عيني لم تكن غافلة عن تعبها . .
 ولا عن إرهاقها . . ولا عن عظمتها .

« أما وقد حلت الإجازة الصيفية .
 فإن الوقت قد آن لتعويضها . . ولو بعض
 الشئ — عما بذلت من أجلى ، ومن
 أجلنا جميعاً . . لقد صممت على ألا
 أجعلها تلمس أى عمل ، من أى نوع ،
 ما دمت أنا قادرة على إنجازه . . .
 سأقوم بأعمال البيت جميعاً غير متأففة ،
 ولا كارهة . . . سأقوم بعمل أى شئ ،
 وكل شئ ، من أجلها . . من أجل
 هذه التى تكاد أعمالها تبكىنى لشعورى
 بالعجز عن التعبير عن امتنانى العميق
 لها . ربما أستطيع أن أرد إليها القليل
 من دينها العظيم على عندما أنجح
 فى أن أجعلها تسمع شيئاً من الثناء على .
 وعلى أخلاقى . . وعلى الفضائل التى
 قضت عمرها تعلمنا إياها .

« أما النقطة الثانية فى تخطيطي
 لإجازتي الصيفية فهى القراءة . . ثم
 القراءة . . ثم القراءة . إن القراءة رفيق
 الذى لم أمله ، ولن أمله . . كانت
 رفيق منذ كنت طفلة صغيرة لا تكاد
 تستوعب ما تقرأه . إن القراءة تسهوينى
 لأنى ، من خلالها ، أستطيع أن
 أعبر إلى الماضى . ومن خلالها أستطيع أن
 أزداد معرفة بعالمنا المعاصر ، ومشكلاته ،
 وقدراته على حل هذه المشكلات .
 ومن خلالها أستطيع أن أتعرف على
 تاريخ الرجال العظام الذين عبروا
 بالإنسانية فى تاريخها الطويل ، وكان
 لكل منهم قصة كفاح ، ونضال ،
 لا بد أن أفيد منها شيئاً ، بل أشياء
 لها قيمتها . ومن خلالها أستطيع أن
 أتعرف على خصائص الشعوب ،
 وتاريخها ، وكفاح كل منها على طريق
 الحضارة .

« هذا هو أهم سبب فى أسباب
 عشقى الذى لا حدود له للقراءة .
 أما السبب الآخر الذى يزيدنى تعالماً
 بها ، فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى
 أن أحققه فيه . فإن هوايتى ، بل

أمنيتي أن أصبح كاتبة . والإطلاع . .
 المزيد من الإطلاع . . هو الوسيلة
 الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ، ما دامت
 الموهبة لا تنقصني . وهي بالفعل لا
 تنقصني .

« ذلك ما أوحى به إلى خلجات
 نفسي . . وأنا أتأمل ، من خلال
 نافذتي ، روعة الطبيعة . . وإعجاز
 القادر عز وجل » .

هل من حق أن أتوقف هنا قليلاً لأسأل : كم كان عمر هذه الفتاة
التي جلست مع نفسها « في صباح يوم وضاء » لتفنى إلى مذكراتها
الخاصة بهذه الكلمات الكبيرة معنى . . والكبيرة أسلوباً . . والكبيرة
إحساساً ، وأملاً . ومسئولية ؟

ربما كان من حق أن أتوقف لأسأل هذا السؤال الذي أتصور
أن كثيرين غيرى سوف يسألونه . . وعلى ذلك ، فإنه يصبح من واجبي
أن أجيب : لقد كانت تقف بعمرها على أبواب الثامنة عشرة ! !
ولكن . . أية أحلام هذه التي كانت تراودها وهي تقف على أبواب
هذه السن الغضة ؟

● إنها ، كما ترى ، لا تحلم « بفارس الأحلام » الذي سوف
يتقدم إلينا طالباً يدها ! !

● ولا تحلم « بشاطئ البحر » الذي سوف تبنى على رماله قصوراً ،
ما أشد قدرة الشتاء على تهديمها ! !

● ولا تحلم « بالموضة » التي لم يتح لها انهماكها الجاد في دراستها ،
بضع ساعات ضائعة من العمر تقضيها مع خطوطها . . وجنونها !

لم تكن بنت الربيع الثامن عشر تحلم بشيء من هذا كله . . .
ولما كانت تحلم « بأمها » . . كيف ترييحها . . وكيف تسعددها . .
وكيف تعوضها عن الليالي الطوال التي قضتها ساهرة بجوارها لتقدم لها -
على حدة تعبيرها - « ما تطلب . . وما لم تطلب » . .

وراحت تحلم « بالقراءة » . . وكيف أنها سوف تلتهمها التهاماً ،
وتعب من بحرها عباً . .

وراحت تحلم « بالكتابة » . . وكيف أنها سوف تتخذ من القراءة . .

المزيد من القراءة . . جسراً يوصلها إلى تحقيق أمنيته . . إلى أن تصبح « قصصية ذائعة الصيت » . . أو « شاعرة راسخة القدم » ! !

وربما يكون من التجاوز الشديد أن نعتبر هذا كله أحلاماً . أجل . . . إنها ليست « أحلاماً » راحت تشبع بها خيالها . . وليست « منى » راحت تمنى بها نفسها . . وإنما الصحيح أنها « خطة عمل » . . « خطة عمل » كاملة ، قررت أن تلتزم بها لترضى ، وترضى . . لترضى أمها ، وترضى ضميرها ، وترضى مشاعرها . . ثم لترضى هي عن نفسها ، وعن مستقبلها الذى راحت تخطط له الخطط ، وترسم له معالمه وحدوده . وواضح من كل ما كانت تفكر فيه « نادية » . . وتحلم به . . وتخطط له - واضح أنها كانت تعرف تماماً : من هى . . وماذا تريد .

كانت تعرف - وبدون أية محاولة من جانبها لمخادعة نفسها - أنها موهوبة . . وملهمة . . وأن طريقها لتنمية موهبتها ، وللاستزادة من الثقافة التى كانت تريد لها سلاحاً تضعه فى خدمة موهبتها ، مفتوح على أوسع أبوابه ، وليس ثمة عائق يعوقها عن الدخول منه .

أما ماذا تريد - فبدون أية محاولة لخداع النفس أيضاً - كانت تعرف تماماً أنها تريد أن تصبح أديبة : « قصصية ذائعة الصيت » . . أو « شاعرة راسخة القدم » . ومن هنا اختفت صورة « فارس الأحلام » من دفتر مذكراتها الخاصة ، فلم يلح له فيها أى أثر فى حين لاح أكثر من أثر « للقصصية الذائعة الصيت » ، أو « الشاعرة الراسخة القدم » التى كانت تريد أن تكونها .

فبتاريخ يوم الخميس التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ - نلتقى فى مذكراتها الخاصة بهذه السطور :

● « كنت اليوم أفكر فى الزواج . .

ما هو ؟

« إنه في نظري ليس نهاية الآمال
بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً
قاتلها ! !

« ولناخذ حالتى مثلاً : فتاة شابة
تعشق الخيال . . وتعشق الكتابة . .
وتعشق القراءة . . وتعشق الموسيقى .
ماذا يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة
لو أوقعها القدر في " مصيدة الزواج " ؟ !

« الجواب معروف . . . ستكون
مشغولة دائماً ، ولن يكون لديها ساعة
فراغ واحدة تستطيع أن تمارس فيها
شيئاً من كل ذلك الذي تعشقه .
إنها سوف تتحمل مسؤولية زوجها الذي
من المحتمل أن يكون واحداً من هؤلاء
الكثيرين الذين لا يحبون الخيال . .
ولا يحبون القراءة . . ولا يحبون الكتابة . .
ولا يحبون الموسيقى . وسوف تتحمل إلى
جانب مسؤولية زوجها - الذي قلت إنه
من المحتمل جداً أن يكون من ذلك
الطرز - سوف تتحمل مسؤولية أطفالها . .
ومسؤولية بيتها نفسه . وإذا لم أشأ أن
أكون متشائمة ، وتصورت أن مثل هذه
الفتاة سوف تستطيع أن تختلس لنفسها

دقائق من الراحة . . فإنها لن تستطيع
 في هذه الدقائق القليلة التي سوف
 تحتلها ، أن تعود فتتركب " قطار
 الخيال " الذي يسمح لها بأن تكتب
 القصة . . وتنظم الشعر . . وتسمع
 الموسيقى . . وتسرح . . وتسرح ! !

« إن الرجل يستطيع دائماً أن
 يعيش حياته . . يستطيع ، لو أراد ،
 أن ينحصر حياته لرغباته ، وآماله ،
 واختياراته . أما المرأة . . هذا المخلوق
 الضعيف برغم كل شيء . . برغم أنها
 أثبتت قوتها ، ونجاحها في كثير من
 الميادين . فإنني أعترف بأنها - ويا للأسف
 الشديد - لا تزال ضعيفة جداً بالنسبة
 لإحدى النقاط الهامة المرتبطة بحياتها .
 فالمرأة . . أبة امرأة . . ما تزال تفزع
 من أن يقال عنها إنها " عانس " .
 وهي الكلمة البشعة التي تقال دائماً
 على كل من لم تستطع أن تلحق
 بقطار الزواج . »

* * *

وهنا . . في هذه الكلمات بالذات ، يبرز خط من أبرز خطوط
 تركيب " نادية " الخلق والنفس . . ذلك هو « الصدق » . فلقد كانت

”ناديه“ صادقة مع الناس إلى أبعد حد . . . وكانت أشد ما تكون
صادقا مع نفسها . حتى بالنسبة للحلم الذهبي الذى ليس كمثل حلم
يداعب خيال كل فتاة فى مثل عمرها . . إنها تخاف ذلك الحلم الذهبي .
ولكنها – بصدقها الخالص مع نفسها – تقولها صريحة : إنها لا تستطيع
أن تستغنى عنه . ذلك لأنها أنثى . . وكل أنثى ضعيفة . . وكل أنثى
لا بد أن تكره تلك الكلمة البشعة التى تقال عنها إذا ما فاتها « قطار
الزواج » . . كلمة « عانس » ! !

ومن صور ذلك الصديق الخالص مع نفسها – وهو الصديق الذى
كان يحكم ، ويتحكم ، فى جميع تصرفاتها . . أهونها ، وأكبرها ،
على السواء أذكر لما الصور التالية :

● جاءتنى مرة شاكية من العناء الذى تتعرض له فى وسائل المواصلات
من بيتنا فى مصر الجديدة إلى الجامعة بالجيزة . فاقترحت عليها أن تركب
مع مجموعة من زميلاتنا كن يذهبن إلى الجامعة ويجن منها فى السيارة
الخاصة بإحدهن – وإذا بها تفاجئنى برفض اقتراحى قائلة :

– لا يمكن . . .

وكان طبيعياً أن أسألها :

– لماذا ؟

– لأننى لا أحب أن أفرض نفسى على أحد .

– ولكنك تتعرضين فى المواصلات لمضايقات لا تستطيعين –

بحكم تكوينك – احتمالها

– عندما أقارن بين مضايقات المواصلات ، وبين المضايقة التى

قد أسببها لؤلؤ الزميلات ، أجد أن احتمال الأولى أهون بكثير على نفسى .

– ولكنك فى المواصلات تتعرضين لكثير مما تكرهينه .

— وهذا أيضاً أهون عندي . . فإن راحة الجسم لا تهني . .
 وإنما الذي يهني هو راحة مشاعري ، راحة نفسي . . وليس من السهل
 على أن أجد هذه الراحة مع شعوري بأنني فرضت نفسي على زميلاتي .
 ورفضت "نادية" بإصرار ، أن تعمل باقتراحى — ومضت فى طريقها
 الذى رضىته لنفسها ، واضعة راحة النفس فوق راحة البدن . . فكانت
 تعود إلينا فى نهاية النهار متعبة غاية التعب . . ساخطة أشد السخطة
 على وسائل المواصلات وما يحدث فيها ، وما يحدث منها ، واضعة « عزة
 نفسها » فوق اعتبار « الراحة » التى يضعها كثيرون من الناس قبل كل
 اعتبار ، وفوق كل اعتبار . . ثم تعود ، مع الصباح ، فتتعامل من
 جديد مع وسائل المواصلات !

* * *

وفى مرة أخرى ، عادت إلى من كلبتها وقد اتخذت قراراً بأنها
 لن تحضر أية محاضرة لواحد من أساتذتها .
 فسألها :

— لماذا . . ؟ !

— لأنه يستخدم فى مخاطبة الطلبة ألفاظاً لا يليق بأستاذ فى الجامعة
 أن يستخدمها .

— هل وجه لك أنت شخصياً شيئاً من هذه الألفاظ ؟ ؟

— أبداً . . .

— إذن . . فلماذا تقاطعينه ؟ ؟

— لأننى لا أطيق أن أسمع الألفاظ التى يتفوه بها ، ولا أطيق

أن أراه وهو يجرح بها زميلاتي وزملائي .

— ولكن هذا الأستاذ لن يكون هو الخاسر بعدم حضورك محاضراته .

وإنما ستكونين أنت الخاسرة . لأنك فى نهاية العام سوف تؤدين امتحاناً

في مادته التي يحاضركم فيها .

— لن أخسر شيئاً . . . إنني واثقة من ذلك . . .

— كيف . . . ؟ ؟

— لأن هذا الأستاذ ، بالذات ، لا يقول في محاضراته حرفاً واحداً زائداً على كتابه الذي بين أيدينا . . . والكتاب معي ، وسوف أذاكر منه . . . وسترى أنني ، بإذن الله ، سوف أنجح .

— ولكن . . . ما الذي سوف تكسبينه بمقاطعتك لمحاضرات ذلك

الأستاذ ؟

— سوف أكسب الكثير . . .

— ما هو هذا الكثير الذي سوف تكسبينه ؟

— سوف أكسب أنني لن أرى شخصاً فقدت احترامي له . . .

وهذا في رأيي ليس مجرد كسب . . . بل هو نوع من السعادة أدخله على نفسي . . .

ونفذت ”نادية“ ما قررت . . . قاطعت محاضرات الأستاذ . . . وذاكرت من كتابه . . . و . . . ونجحت .

* * *

قالت لها زميلة من زميلات الدراسة وهي تصافحها مودعة بعد إحدى زيارتها لها بالمستشفى :

— إنت عمرك يا نادية ما تقولى لى . . . خلينى أشوفك ؟ ؟

وتشاغلت ”نادية“ عن الرد على زميلتها بكلمات بعيدة ، كل البعد ، عما سألتها عنه ، وانتهت المصافحة . . . وانتهت الزيارة . وتصورت أنها لم تسمع ما قالته لها زميلتها ، وهي تصافحها مودعة فسألها :

— هل سمعت ما قالته لك ”فلانة“ وهي تودعك ؟ ؟

— سمعته . . .

— إذن لماذا لم تردى عليها ؟

— لأننى بالفعل لا أحب أن أراها — فهل تريدنى أن أكذب

على نفسى ؟

— بالطبع لا . . . ولكن ، لماذا ؟ ؟

— لأنها ، ببساطة ، إنسانة تافهة . . . ويصعب على جداً الوقت

اللى بأضيعه معاها عندما تجيء لزيارتى . . .

— ولكنك مريضة . . . وهى تقصد بزيارتك ، وأنت مريضة ،

أن تسليك عن مرضك .

— حتى وأنا مريضة ، فعندى ما أفكر فيه . وانفرادى بنفسى .

وكلامى مع نفسى . . أفضل عندى ألف مرة من دقيقة واحدة أقضيها

مع إنسانة ليس عندها شىء له قيمة يمكن أن تقوله . . . إنها تثرثر

فقط . . وأنا ، بصراحة ، لا أحب الثرثرات .

وأترك "نادية" الصديقة إلى أبعد حد مع الناس - والتي هي أشد ما تكون صدقاً مع نفسها ، أتركها بعد أن أكون قد خرجت من تأملى لها . لكل كلمة قالتها ، وكل فعل فعلته ، بنتيجة ، لا أحاول - مخلصاً - أن أدخل بها العزاء على نفسى . . . ولعل هذه النتيجة التى خرجت بها من تأملى الأبوى لتصرفاتها : وكتاباتها ، وأفعالها - هى نفسها التى لا بد أن يخرج بها أى شخص آخر يتاح له - مثلما أتيت لي - تأمل حياتها ، وتصرفاتها ، وأفعالها ، وكلماتها . وهذه النتيجة هى : أن ديانا هذه لم تكن صالحة لسنوات أخرى من العمر تقضيها "نادية" على أرضها . فقد أصبحت ديانا غنية بألوان من الخداع ، والنفاق ، والزيف . . . كان مستحيلاً عليها - بحكم تركيبها النفسى والخلقى الذى جئنا ، فيما تقدم ، على شىء من ملامحه - تقبلها . . . أو حتى معاشتها . فلقد كان إحساسها المنحفض دائماً لالتقاط هذه الأشياء التى تشوه وجه الدنيا . . . والتي يسقط تحت وطأتها أولئك الذين لم يرحمهم قدرهم فخلقوا على طرازها - أقول كان إحساسها المنحفض لالتقاط هذه الأشياء . . . يعذبها ، ويضنيها ، ويرهقها ، ويجعلها تنظر إلى الدنيا . . . وإلى كل ما يجرى على أرضها . . . نظرة ليس فيها شىء من لون الربيع الذى كان يمثله عمرها .

فى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٦٤ - ألفت "نادية" مزيداً من الضوء على هذه الأشياء التى كانت تعتمل فى أعماقها . . . والتي كانت ، فى نفس الوقت ، تضنيها وتعذبها - فكتبت فى مذكراتها تقول :

● « اليوم - دارت بينى وبين مجموعة من زميلاتي فى المدرسة مناقشة حول "الحياة" . . . وكان رأى الذى

أبديته في هذه المناقشة أن "الصدقة" .
 وأن "الإخلاص" . . أشياء لم يعد
 لها وجود في هذه الأيام التي أصبحت
 علاقات الناس فيها تقوم على أساس
 من المصلحة ، وتبادل المنافع فقط .
 أما الصدقة للصدقة ذاتها .. والإخلاص
 للإخلاص ذاته . . فقد صارت مع
 زماننا هذا "عملة" قديمة غير معترف بها..

« وقد استخلص زميلاتي من رأيي
 هذا أنني متشائمة من الحياة . والحقيقة
 أنني لا أشعر مطلقاً بشيء من التساؤم .
 لكن الذي أشعر به ، حقيقة ، هو
 أن طبيعة عمل والدي قد وضعته
 ووضعتنا معه - في احتكاك مباشر -
 مع الحياة .. وهو شيء أعتقد أنه لا يتوافر ،
 بنفس القدر ، لزميلاتي اللاتي اتهمني
 بأنني متشائمة . إنهن لا يسمعن ما أسمع
 ولا يعرفن ما أعرف . . . ومن هنا ،
 فإنني أستطيع أن أقول إنهن لا يعرفن
 الحياة كما أعرفها . إن الحياة عندهن
 ضحكة ، ولعبة . . وليست هذه هي
 الحياة . . إنما الحياة ، في حقيقتها .
 رحلة استكشاف مستمرة . والمؤسف .
 أن معظم ما يستكشف فيها أليم » .

وربما يكون فهم "نادية" للحياة على هذا النحو ، هو السبب في كونها - على الرغم من حداثة سنّها - كانت متممة إلى الله على نحو لا يكاد يصدق ، بالقياس إلى مرحلة العمر التي كانت تعيشها . لقد كانت تعيش معنا بجسدها . . . في حين كانت - بيقين - تعيش بوجدانها كله ، بقلبها كله ، مع الله . كانت روحها متصلة به . . . تهفو إليه . . . وتلهف تلهفاً غريباً على لقائه . . . والصعود إليه . . .

ولم يكن هذا التلهف الغريب على لقاء الله ، والصعود إليه ، ناشئاً عند "نادية" عن يأس ، أو ضياع ، أو فشل . . . فلقد كانت طموحة ، وذكية ، ومتفوقة . . . ليس على قريناتها فحسب ، بل كانت متفوقة حتى على نفسها . . . وعلى عمرها .

ففي الوقت الذي كانت تؤمل فيه أن تصبح أول سفيرة لمصر في الخارج . . . وتعمل ، إيجابياً ، لهذا الأمل فتكون واحدة من العشرة الأوائل في الثانوية العامة ، وتدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - كخطوة أولى على الطريق لتحقيق هذا الأمل الكبير - في هذا الوقت نفسه ، نجدها تكتب لنفسها في دفتر مذكراتها الخاصة :

● لا شك أن لكل إنسان في هذه الحياة أمنية يريد تحقيقها . . . وإذا سألتني أحد عن أمني التي أتمنى أن أحققها ، فإنني لن أتردد في القول بأن أمني هي أن أصعد إلى السماء . . . أن ألقى الله . . . أن أكلمه . . . أن أناجيه . . . أن أفضي إليه سبحانه وتعالى ، بكل ما يدور في نفسي . . .

« وربما يرى البعض أن أمني
 هذه إن هي إلا مجرد خيال لا معنى له .
 ليكن . . . ولكنها . على كل حال .
 أمني التي أمني - بإخلاص وصدق -
 أن أحققها » .

* * *

وفي موضع آخر من المذكرات نفسها - فلتقي بها وهي تكتب :

● « إنني كثيراً ما تمنيت أن
 أموت . . . وليس ذلك لأنني يائسة
 من حياتي . . . أو لأن هناك ما يعكر
 على صفوي . وإنما أنا أمني الموت لأنه...
 لأنه الطريق الوحيد الذي أستطيع ،
 من خلاله ، أن ألقى الله . وأنا أريد
 أن ألقى الله . . »

* * *

وفي مقطوعة شعرية كتبها في فبراير سنة ١٩٦٤ - وكانت ما تزال
 في الصف الثاني الثانوي - جعلت عنوانها : " ليلي " . . . ولعلها كانت
 ترمز " بليلى " إلى " نادية " . . إلى نفسها . . نجدها تقول :

● « أماء . . ما أحلى اللقاء
 « إنني أسمع الصوت البهير
 « وإشارة الملكوت نحوي والنفير
 « أماء هذا الضوء من ربي القدير

« ونداؤه : ليلي . . هي من نوم
صغير

« ليلي اصعدني نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
« أماه إني صاعدة . . . أماه
إني في حبور
« أماه لا تبكي . . ففي جناته
أحيا وأطير » .

لقد كانت "لنادية". بلا شك. أحلامها... كانت لها أحلامها
الكثيرة ، والكبيرة . وإخميلة . . . فمن أحلامها أنها كانت تريد أن
تصبح أول سفيرة لمصر في الخارج . . . ومن أحلامها أنها كانت تريد
أن تصبح « قصصية ذائعة الصيت » ، أو « شاعرة راسخة القدم » . .
ومن أحلامها أنها كانت تريد : « أن تصبح أماً قادرة على إنجاب رجال
قادرين على تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ، وتجاه وطنهم . . مخلصين
في أداء واجبهم . . شاعرين بالأمن والاستقرار في أحضان أسرهم ،
حتى يستطيعوا - فيما بعد - أن يمنحوا أولادهم نفس الحنان ، ونفس
الاستقرار الذي رضعوه في كنف والديهم » .

كل هذه كانت أحلامها التي عبرت عنها في أماكن متفرقة من
مذكراتها الخاصة . لكن الذي لا شك فيه أن حلمها الأكبر ، والأعظم .
حلمها الذي كان يملك عليها خيالها كله ، وكيانها كله ، وحواسها كلها ،
كان هو « الصعود إلى السماء » . . . إلى حيث كانت تريد أن تلتق الله . .
وتناجيه . . وتكلمه . .

وأعجب ما في هذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، الذي كان يحتويها ..
ويملك عليها خيالها كله ، وكيانها كله ، وحواسها كلها - أنها لم تكن
تحتفظ به سرّاً خاصاً تفضي به - شعراً ونثراً - إلى مذكراتها الخاصة التي
كتبت في أول صفحة منها : « أنها تتمنى ألا يقرأها أحد . . وأنها لم
تكتبها إلا لكي تتابع - من خلالها - مدى التطور الذي سوف يطرأ
على أفكارها » . . وإنما تجاوزت بهذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، دائرة
مذكراتها الخاصة هذه ، وانتقلت به إلى دائرة أكثر علانية . . وأكثر
اتساعاً . . تلك هي دائرة موضوعات « الإنشاء » التي كان مدرس اللغة
العربية في المدرسة يطلب إليها الكتابة فيها .

● فى فبراير سنة ١٩٦٤ - وهو نفس الشهر من نفس السنة
اللى كتبت فيها فى مذكراتها الخاصة تلك المقطوعة الشعرية المتقدمة التى
تخيلت فيها صوت السماء يناديها ، ويدعوها إلى الصعود نحو الله ،
وبجانب الرب الغفور - فى نفس هذا الوقت ، طلب إليها مدرس اللغة
العربية فى المدرسة أن تكتب فى الموضوع الآتى : « جلس طفل متشرد
أمام أحد البنوك ليقضى ليلة طويلة بعد يوم عقيم . عيشى مع هذا
الطفل وصورى مشاعره وخیالاته » .

فكيف تخيلت "نادية" هذا الطفل . . . وبماذا جعلته يحلم . .
وكيف صورت مشاعره وخیالاته ؟ ؟

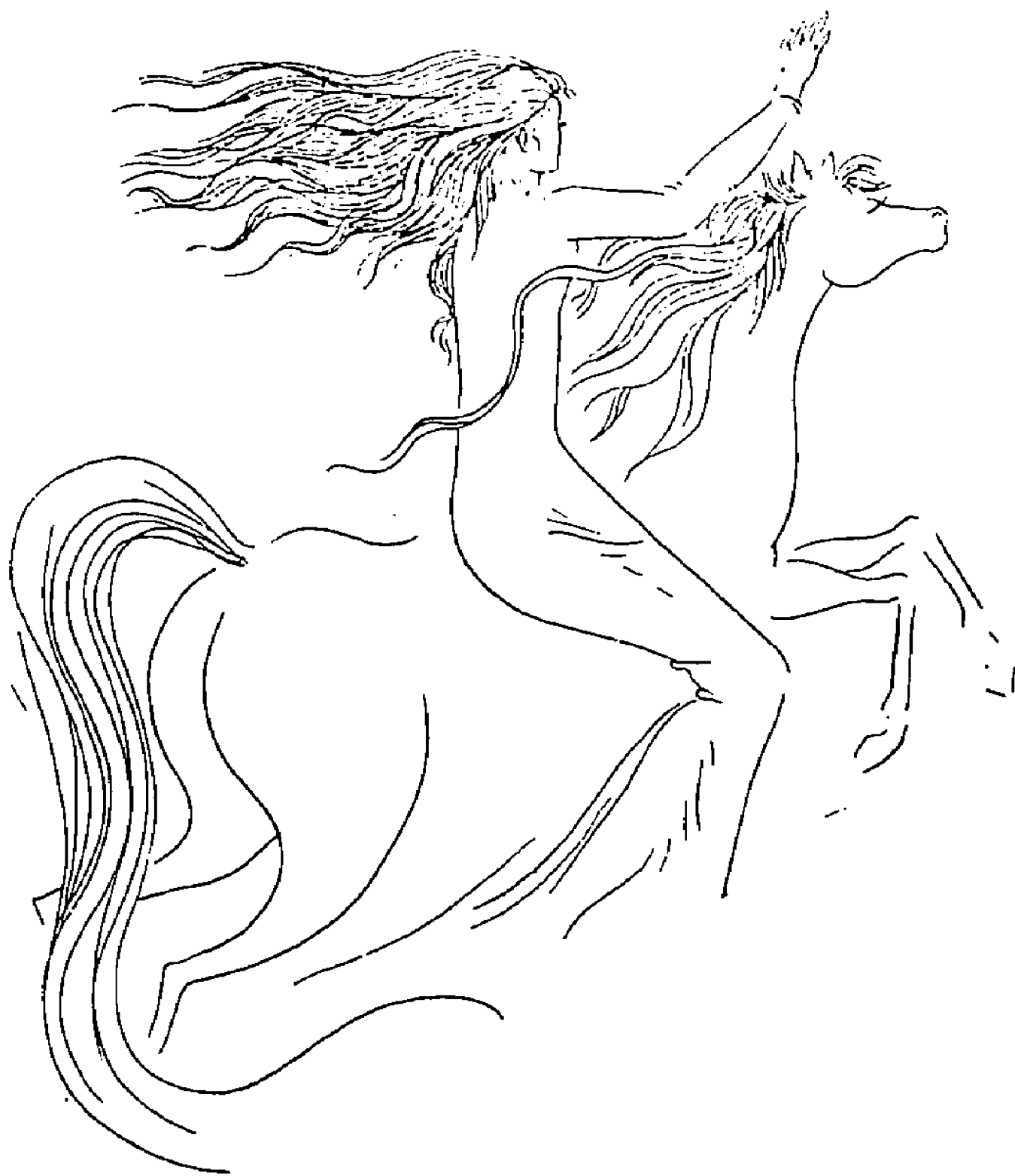
لقد رآته طفلاً رقيقاً وديعاً . . أرهقته الأيام بظلمها له ، وبإسرافها
فى القسوة عليه . إلا أنه مع ذلك . . وبرغم قسوة الأيام عليه ، وظلم
القدر له - استطاع أن يحتفظ بوجدانه سليماً ، وبقلبه نقياً . . فلم يحقد
ولم يحسد ، ولم يفكر فى الانتقام من أحد . حتى ولا من الأيام نفسها .
لذلك ، فإنه عندما وجد نفسه أمام البنك - بعد عناء يوم عقيم -
فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أسلم نفسه للنوم ، بعد تعب طويل ،
لم يغنه كثيراً ولا قليلاً . . وعندما أخذه النوم فى أحضانه . راح يحلم .
ولكن - هكذا رأت "نادية" - ليس بسرقة البنك . . ولا باختلاس
بعض ما فى خزائنه من مجوهرات وودائع . . ولا بارتكاب أى شيء
يتأذى منه شرفه وضميره .

ولأترك "نادية" . . زهرتنا الحبيبة . . تحدثنا ، بأسلوبها الخاص . .
وبطريقتها الخاصة ، عن « الحلم العظيم » الذى راود ذلك المتشرد الصغير
فى نومته أمام البنك :

● « رمانى التعب إلى جوار شجرة »

جردتها الطبيعة القاسية من أوراها .
وتلفت حولى فرأيتنى أمام مكان عامر
بالأموال . . أمام بنك . . فندت عني
ضحكة ساخرة لمفارقات- الأقدار !!

« وغفوت . . . ثم وجدتني أتابع
سيرى في دهاليز الدجى . وبينما أنا
في رحلتى مع الشقاء ، تعلق عيني
بشئ صغير يبرق على الأرض ، فامتدت
يذى لتلتقطه وقلبي يخفق بالأمل . .
داعياً الله أن يكون ذلك الشئ الصغير
الذى وقعت عليه عيني ، قطعة من
الفضة أستطيع أن أشتري بها طعاماً
أسكت به عواء -جوفى الخاوى . وما
هى إلا لحظة حتى اختنق الأمل في
صدرى . ولكننى ، بالسلاح الذى
تعودت به دائماً مواجهة قسوة الحياة ،
سخرت من صراخ أمعائى . . وتشاغلت
عنه بالعبث بالمسحوق الذى احتوته تلك
الورقة التى التقطتها من على الأرض .
وبدون أن أدري . . . وبدافع من
البرودة القاسية التى كانت تحتوينى ،
نثرت ذلك المسحوق على جسدى لعله
يبعث الدفء فى أطرافى المتقلصة .
ولكن ، ويا للمفاجأة المذهلة . . ماكدت



أنهى من نثر المسحوق على جسدى ، حتى
وجدتني عاجزاً عن رؤية ساقى وذراعى .
لقد اختفيت

« وتساءلت : هل يمكن أن يكون
هذا المسحوق مسحوقاً سحرياً كذلك
الذى يستعين به أبطال الروايات
الخيالية للوصول إلى أغراضهم ؟ ؟
« وافرحته . . . من ذا الذى
قال إن الأقدار قاسية . . . ؟ أتكون
قاسية وهاهى ذى تهبي لي فرصة ما كنت
لأسمح لنفسى بتخليها ؟ . . ألت
وحدى الآن فى مواجهة "بنك" لا يقف
على أبوابه أحد ؟ ؟

« وضحكت ساخراً من أولئك
الذين أغلقوا أبوابهم بالمزاليج الحديدية
وانصرفوا فإننى سوف أدخله . .
وسوف أغترف منه ما أشاء . . كيفما
أشاء . .

« ودخلت البنك . ولا تسألنى :
كيف ؟ . . فأنا نفسى لا أعرف .
كل الذى أعرفه أننى سرت . . وسرت . .
حتى وجدت نفسى آخر الأمر محاطاً
بكنوز من الأموال . وتأملت الأوراق
الحضراء التى كانت دائماً تأبى الاقتراب

منى ، وقد استكانت فى دعة ليدى
العابثة . .

« ودهشت . . . دهشت غاية
الدهشة حين وجدت نفسى لا أريد
أن آخذ شيئاً من كل هذه الكنوز
التي وجدتتها تحيط بى . وعجبت . .
فعندما كانت الأموال بعيدة عني لم يكن
لى فى الدنيا من حلم سواها . ولما أصبحت
فجأة ، ملك يدى لم أعد أريد منها
شيئاً . . حتى ولا أقل القليل . .

« وغادرت البنك . . وعلى غير
هدى ، رحت أسير . . وأسير .
وفجأة وجدت نفسى أواجه شيئاً غريباً
حقاً . وجدت فرساً ذهبياً له أجنحة . .
وعلى الرغم من الذعر الشديد الذى
انتابنى لرؤيته ، اقتربت منه . .
ورحت أتأمله . خيل لى - وربما كان
ذلك حقيقة - أنه يدعونى لركوبه .
وعجبت . . . ! إلى أين يريد هذا
الفرس الذهبى أن يحملنى ؟ ؟ هل
يصعد بى إلى السماء . . ؟ ؟ وهل
أرى الله حقاً . . ؟ ؟ وهل يتاح لى
أن أكلمه . . ؟ ؟

« وتمزقت أفكارى بغته . .

فقد اندفع بنى القوس الذهبى صاعداً . . .
 صاعداً . . . يحترق السحاب تلو السحاب
 وأنا (مبهورة) الأنفاس ، أكاد أكون
 (متحجرة) من الأحداث المذهلة التى
 احتوتنى دفعة واحدة . . .

” و ورأيت الله “ !!

« لم أر سوى نور . . . نور
 عظيم . . . نور يغمر عرش السموات
 والأرض . وعرفت — بغريزتى —
 أن هذا النور العظيم هو الله .

« وانهمرت الدموع غزيرة من
 عيني . . . فإني لم أشعر فى حياتى يوماً
 بحنان الوالدين . . . ولم أسعد مرة بعطف
 إنسان على . ولكن ، هأنذا أستمتع
 بأعظم حنان فى الوجود . . حنان الله
 على عبده !!

« واندفعت أشكو إلى الله ظلم
 عباده على الأرض . . . وكيف أن
 الشفقة والمحبة قد محيتا من قلوبهم . . .
 وكيف أنهم نسوا الآخرة وما ينتظرهم
 فيها من حساب وعقاب .

« شكوت . . . وشكوت . . . حتى
 استنفدت كل ما عندى ، وقد استشعرت
 راحة عميقة . . عميقة . . إذ وجدت ،

أخيراً ، من يستمع إلى شكواى . وكانت
أعظم فرحة دبت فى قلبى ، تلك
التي أحسستها حينما سمعت الله يواسينى .
ويعدنى بخير الجزاء . . . وبكل شيء
افتقدته على الأرض .

« وقبل أن يعود بى الفرس الذهبى
إلى الأرض . . . ذهبت لأرى الجنة
والنار . . . ذهبت لأرى بنفسى . . .
لكى أخبر عباد الله المتجبرين فى الأرض
بالمصير الذى ينتظرهم إن هم تمادوا
فى تجبرهم ، وقسوتهم . . . ذهبت
لأزداد إيماناً بالله ، وخشية منه .

« أخيراً . . . وبعد أن تحقق
الأمل الذى طالما راودنى . . . بعد
أن رأيت الله ، وكلمته ، وناجيته ،
وشكوت إليه . . . بدأت رحلة العودة
إلى الأرض التى كنت خلالها أحلم
بالملاجئ التى سوف أبنها للمشردين
أمثالى . . . وبالبيت الذى سوف يعصمنى
من التشرد ، ويمنحنى الأمان الذى
افتقدته .

« وعند وصولى إلى الأرض . . .
ربت على ظهر الفرس الذهبى معرباً
عن امتنانى له . . . وإذا بى أصحو من

غفوتى لأجد نفسى أربت على الأرض .
 « وتلفت حولى ، فلم أجد
 مسحوقاً سحرى .. ولا فرساً ذهبياً ..
 وفركت عيني حسرة ودهشة . . فقد
 تبينت أنى كنت . . . كنت أحلم ! !
 « وتهدت فى ألم شعرت أنه
 كان يمزق قلبى . . . وقررت أن أعود
 إلى النوم مرة أخرى . . ما دمت
 لا أستطيع أن أجد السعادة التى
 أنشدتها إلا فى الأحلام .
 ” . . . واسترسلت فى النوم !! «

• • •

وإلى أبعد من هذا القدر . . . فى هذا « الحلم العظيم » . . لم تشأ
 ” نادية “ أن تمضى . فتوقفت لتقدم « موضوعها » إلى مدرس اللغة العربية
 ليمنحها عليه « الدرجة النهائية » وليسجل بجوار الدرجة النهائية التى منحها
 لها قوله : « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير » .

وإننى لأعذر مدرس اللغة العربية الذى منح ” نادية “ على هذا
 الموضوع « الدرجة النهائية » المقررة له ، إذا كان لم ير فيه إلا أنه :
 « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير » — أعذره إذا كان لم ير
 فيه غير هذا . . . فإنه — مثلنا تماماً — لم يكن مطلعاً على ما تكتبه
 « نادية » لنفسها . . وتخفيه عن أعين الجميع ، إلا عن عينيها التى
 كانت ترى بها أشياء كثيرة ، لم يكن فى استطاعتنا أن نشاركها رؤيتها
 إياها . . . ولو أنه كان مطلعاً عليه — مثلما أتيج لنا الإطلاع عليه ،

بعد أن بارحتنا إلى عالمها الخاص الذى كانت تتحرق شوقاً إليه - لكان قد أدرك على الفور : أن الذى امتطى « الفرس الذهبى » وراح يشق به السحاب تلو السحاب . . . ويصعد به سماء من بعدها سماء ، حتى التقي بالله . . . وكلمه . . . وناجاه . . . وشكا إليه ، لم يكن هو ذلك الطفل المشرّد الذى أعياه التعب فى يوم عقيم ، فنام أمام البئس ، وإنما كانت « نادية » نفسها هى التى امتطت ذلك « الفرس الذهبى » . وهى التى صعدت به إلى السماء . . وهى التى قابلت الله ، وناجته ، وكلمته ، وشكت إليه . لقد امتلك عليها هذا « الشعور » حواسها كلها ، وخيالها كله ، حتى أنساها أن تستخدم ضمير المتكلم المذكر الذى هو الطفل المشرّد الذى طلب مدرس اللغة العربية منها ، ومن زميلاتها فى المدرسة . أن يصورن مشاعره وأحلامه - أجل . . لقد نسيت « نادية » وسط الحلم الأكبر ، والأعظم الذى كان يحتويها - أن تستخدم « ضمير المذكر » فى وصف مشاعر الطفل وأحلامه ، وراحت تستخدم « ضمير المتكلمة المؤنثة » فى وصف مشاعرها هى . . وإحساساتها هى . . وأحلامها هى . . فتراها تقول : « اندفع بى الفرس الذهبى صاعداً . . . صاعداً . . . يتحرق السحاب تلو السحاب . . وأنا (مبهورة) الأنفاس . . أكاد أكون (متحجرة) من هول الأحداث المذهلة » .

إن "نادية" تتابع « حلمها الأعظم » بإصرار شديد عليه . وتعتق غريب به ، حتى ليتمكن القول إن أحلامها جميعاً قد ذابت ، وانصهرت في هذا الحلم الواحد الذي لم يعد لها من حلم سواه . . . ففي ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ - أى بعد أقل من شهر من ذلك اليوم الذي خالت فيه "نادية" نفسها تمتطى فرساً ذهبياً ، وتصعد به إلى السماء ... فتقابل الله ، وتكلمه ، وتناجيه - فلتقى بها في مذكراتها الخاصة وهى تقول :

● « إننى أفكر الآن فى أشياء كثيرة أراها تصيبنى بالملل . . . فالذهاب إلى المدرسة أمله . . . والبقاء بالبيت أمله . . . والروتين يكاد يقتلنى . وأعتقد أننى لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأننى أحترق . . . وبأننى أموت موتاً بطيئاً ! !

« إننى أحس أننى أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . ولكن ، ما هو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله ؟ »
ليست عندى أية فكرة عنه .
« أحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون "ناسكة" . . . وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعها . . . وأحياناً أتمنى لو أننى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . .

أراقب السماء ، وأسرح في ألوانها الجميلة ،
وفي قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها
فأحسن صنعها .

« ولكن الأهم من هذا كله هو
أنى ، فى كثير من الأحيان ، أشعر
برغبة جارفة فى الموت ، لا لسبب .
إلا لأننى أريد أن أرى الله . . .

« فى السنة الماضية . . . كنت
فخورة جداً بنفسى . . لأننى كنت
أفهم معنى كل كلمة أنطق بها ، ومعنى كل
شعور أشعر به ، ومعنى كل تصرف
يصدر عني . أما فى هذا العام فإننى
لا أكاد أفهم نفسى . .

« إن عاصفة قوية تكاد تقتلع
الأشجار أحس بها تجتاحنى . والغريب
فى أمرى أننى لا أريد أن أتجاهلها . .
ولا أستطيع أن أرفع عنها عيني » .

• • •

وفى يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ - تعود نادىة فتكتب :

• « يوم رائع من أيام الربيع . .
رائحة الورود تملأ الجو من حولى .
ولكن . . . وعلى الرغم من هذا اليوم
الرائع من أيام الربيع . . ومن رائحة

الورود التي تعبق الجوف من حوى . .
 أشعر بحزن عميق يحتاجنى . لماذا . . ؟
 لا أدرى . ولكن ، يخيّل إلى أننى أبحث
 عن شيء ضائع ، ولا أعرف طريقى إلى
 الوصول إليه . ولكن ، ما هو هذا
 الشيء ؟ هذا هو أيضاً مالا أكاد
 أعرفه .

« إننى عندما أكون وحدى أقع
 فريسة للحزن . . والغريب ، مع ذلك ،
 أننى أحب كثيراً أن أبقى وحدى . أفكر
 لنفسى . . وأتكلم مع نفسى . .
 وأحاسب نفسى . إن التفكير يكاد
 يقتلنى . ولكننى — وهذه مشكلتى —
 لا أستطيع أن أعيش بغيره . إن "الفكر"
 هو حياتى » .

• • •

وفى يوم الاثنين ٤ مايو سنة ١٩٦٤ — تعود "نادية" إلى «الشيء»
 الذى يكاد يقتلها . . والذى لا تستطيع ، مع ذلك ، أن تعيش
 بدونه تعود إلى «التفكير» . . وإلى تأمل ما حولها ، ومن حولها —
 فتكتب :

● « ما الذى كان يمكن أن تكون
 عليه الحياة . . أو ما الذى كان يمكن
 أن تكون عليه الأرض . . لو لم تكن

هناك سماء ؟ ؟

« هل كانت الحياة تفقد الجزء
الأكبر من جمالها ؟

جائز . . .

« ولكننى أتصور أنه لو لم تكن
هناك سماء ، فإننى كنت سوف أشعر
بقدر أكبر من الحرية . .

« إن الشعور الذى يستولى على
هذه الأيام ، هى أن الأرض صغيرة . . .
صغيرة جداً . . . وأنها تكاد تسجننا
بضيقها ، وصغرهما . فالبيوت تطبق
عليها . . والمباني العالية تحجب عنا
الأفق الجميل .

« ألم يكن من الأفضل لو لم تكن
هناك "سماء" حتى نشعر بأنه ليس
هناك شيء يحجب عنا ما نريد أن ننفذ
إليه بأبصارنا ؟ ؟

« إن السماء . . مع الأرض . .
تكوّن فى نظرى سجنًا كبيراً . . فتى . .
متى أنجو بنفسى من هذا السجن الكبير ؟ »

• • •

وهنا . . . أجدنى محتاجاً لأن أتوقف قليلاً . . لأناقش « ظاهرة » ..
وأجيب عن « سؤال » .

. . أما « الظاهرة » فهي أن « نادية » — في أكثر من قول . وحلم . وأمنية — قد كشفت لنا ، بما لا يقبل الشك ، أنها كانت تعيش معنا في دنيانا هذه . . بجسدها وب عقلها وحدثها . أما قلبها ، ووجدانها ، فقد كشفت لنا — وأيضاً بما لا يقبل الشك — أنها كانا دائماً — وليس في لحظة دون أخرى — معلقين بالسما . ورب السماء . . يشدانها إليه ، ويجذبانها نحوه ، ويملان حواسها كلها اقتناعاً صادقاً — أكمل ما يكون الصديق وأجمله — بأن الصعود إلى الله ، ومكالمته ، ومناجاته ، إنما هو أمنيها التي تتضاءل بجانبها أكبر الأمانى . . وحلمها الذي « تبته » بجانبه ألمع الأحلام .

أما وقد استوقفنا — من خلال أقوال « نادية » وأحلامها ، وأمانيتها — هذه « الظاهرة » . . . فإن ثمة « ظاهرة أخرى » مرتبطة بها أشد الارتباط ، بل لعلها مكملتها . جديرة بأن تستوقفنا وتلك هي أن « نادية » ، وقد امتلأ وجدانها اقتناعاً بأن « الصعود إلى السماء » هو أمنية الأمانى . . وحلم الأجلام ، فإنها — لم تكن تلعن « الأرض » . . . لم يكن في نفسها سخط عليها ، ولا تبرم بها . صحيح أنها ، بكل جوارحها ، كانت مشدودة دائماً إلى عالم آخر ، عالم فسيح . . فسيح . . عالم « أكثر شفافية ، وأكثر نقاء » . . . إلا أنها ، مع ذلك كله . . . وعلى الرغم من ذلك كله ، كانت تحيا « حياتها الأولى » كإنسانة سوية أتم ما يكون الاستواء . . . إنسانة مزدهرة العقل والضمير والوجدان . . . إنسانة تطمح ، وتأمل ، وتألّم ، وتنافس ، وتتنافس ، وتتطلع دائماً نحو الأفضل . وتصل دائماً إلى ما تتطلع إليه .

فلقد التقينا بها ، في كل ما كتبه ، فإذا هي تشيد دائماً « بالنور » الذي كانت تراه . بعينها . في يقظتها ومنامها . يملأ السماء من حولها . . . وتسمعه ، بأذنها ، يناديها ويدعوها إلى الصعود إليه . . ولكننا لم نلتق

بها — مرة واحدة — وهي تلعن « الظلام » الذى يطبق على الأرض . . .
ولم نلتق بها تلعن الأرض نفسها . . . وقصارى ما قالت في حقها :
«إنها ليست سوى سجن كبير أتمنى الخلاص منه» ويقى أنها لم تصف
« الأرض » بهذه الصفة إلا لحساب « السماء » التى كانت تعطىها كل حبها ..
وكل قلبها . . . وكل تعلقها . . .

• • •

. . . وإذا كان هناك ثمة معنى يمكن أن نستخرجه من تعلق
« نادية » « بالسماء » ذلك التعلق الغريب الذى التقينا بصورته في كل سطر .
وفي كل صفحة . . من سطور وصفحات مذكراتها الخاصة — في نفس
الوقت الذى لم تكن تدير فيه ظهرها « للحياة الدنيا » ، ولا تضيق بها ،
ولا تسخط عليها . . فهذا المعنى هو أن شعوراً داخلياً عميقاً قد استقر
في قلبها ، وجعلها — دون أن تدري — تدير حياتها كلها وفق ذلك التوجيه
العلوى الأسمى الذى يقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس
نصيبك من الدنيا » .

ولقد كانت « نادية » — بكل الحق والصدق — تبتغى فيها أتاها الله
« الدار الآخرة » . لقد أتاها الله وجداناً نورانياً وقدرًا من الإلهام غيز قليل .
وبهذا الوجدان النوراني ، وبذلك القدر غير القليل من الإلهام —
كانت تبتغى الله دائماً . . . فكانت تصوم ، وتصلى ، وتقرأ القرآن . . .
كانت تؤمن بالله إيماناً لا حد له . . كانت ترزق نحوه ، وتتطلع إليه ،
وتتحرق شوقاً إلى لقائه . وفي هذا الوقت نفسه ، لم تكن « نادية » تنسى
« نصيبها من الدنيا » . فكانت — كما أسلفت في صفحة سبقت —
طموحة ، وذكية ، وأنيقة في الملبس ، والمأكل ، والمشرب . . وكانت
متفوقة ليس فقط على قريناتها . . بل كانت متفوقة حتى على نفسها ،
وعلى عمرها . .

وربما يبدو غريباً بالنسبة لمن سوف يقرأون هذا الكتاب — أن يعرفوا أن أول جائزة تفوق حصلت عليها "نادية" كانت في سنة ١٩٥١ . وفي هذه السنة — سنة ١٩٥١ — كان عمرها أربع سنوات فقط . . وكانت الجائزة في القراءة والمحفوظات الفرنسية . .

ومنذ ذلك التاريخ الذي حصلت فيه "نادية" على أول جائزة من جوائز التفوق ، لم تدع هذه الجوائز تفلت من يدها . فظلت محتفظة بها دائماً . . . ابتداء بهذه الجائزة التي حصلت عليها وهي ما تزال في الرابعة من عمرها . . وانتهاء بجائزة الامتياز التي حصلت عليها في عيد العلم سنة ١٩٦٦ باعتبارها واحدة من العشرة الأوائل في الثانوية العامة : ١٤ جائزة تفوق . . . بعدد السنين الأربع عشرة التي أمضتها في المدرسة . ابتداء بمرحلة «الروضة» وانتهاء بالمرحلة «الثانوية» ! !

لقد كان « التفوق » . . . وكان « الامتياز » شغلها الشاغل . . . وهو لم يكن في نظرها قضية « تفوق » أو « امتياز » فحسب ، بل كان أيضاً قضية « كرامة » ، ومن هنا كان حرصها على تفوقها جزءاً لا يتجزأ من حرصها على كرامتها . فبتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة) كتبت في مذكراتها الخاصة تقول :

● « لأول مرة في حياتي — أشعر بأنني سوف لا أكون ” الأولى “ في اللغة العربية على الفصل . لا أعرف ” سبباً معيناً لشعوري هذا . . . فقد أدت الامتحان بنفس الحماسة ، ونفس العناية اللتين اعتدت أن أؤدي بهما جميع امتحاناتي . ولكنني ، مع هذا ، أشعر أنني سوف لا أكون ” الأولى “ . غداً امتحان ” المواد الاجتماعية “ . ليست عندي أى رغبة في المذاكرة بسبب ذلك الشعور الذي تملكني . سأكون حزينة ، غاية الحزن ، لو صدق شعوري وتخلت عني أولويتي » .

وصدق شعور ” نادية “ . . . وأفلتت منها — لأول مرة في حياتها — أولويتها في « اللغة العربية » . فقد عادت في يوم الأحد التالي — ٢٩ مارس — وكتبت في مذكراتها تقول :

● « أبلغتني ” ريموند “ بالتليفون

أنى جئت الثانية فى الترتيب - بكيت كثيراً لهذا الخبر . وكان أكثر ما أبكاني أن الفرق بينى وبين الأولى لم يكن أكثر من "نصف درجة" . وأعتقد أن الذى أحدث هذا الفرق هو "أعمال السنة" التى لم يعطى فيها الأستاذ ما أستحقه . على كل حال ، أنا معترفة له بالجميل . فقد جئت الأولى فى "المواد الاجتماعية" . لكننى واثقة من أنى سوف أسترده "هيبتى" فى امتحان نهاية العام . سوف أبذل جهدى كله من أجل ذلك . وأترك الباقى لله .»

وإنى لأذكر ، فيما أذكر عن تعلقها بالنجاح ، وبالتفوق . . . ونظرتها إليهما على أنهما قضية «كرامة . . . وهيبة» ، قبل أن يكونا قضية «نجاح . . . وتفوق» - أنها فى امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رسبت فى مادة «السياسة» - وكان هذا أول رسوب يصادفها فى حياتها الدراسية كلها - ومن هنا ، رفضت رفضاً قاطعاً أن تسلم بأنها يمكن أن ترسب . وأصرت على أن خطأ ما لابد أن يكون قد حدث فى تصحيح ورقة إجاباتها عن أسئلة هذه المادة . . كما أصرت ، من ناحية أخرى ، على أن ترى بنفسها ورقة إجاباتها عن أسئلة «السياسة» . وأمام إلحاحها الذى لم يفتر . . وأمام بكائها الذى لم ينقطع منذ أن علمت بنتيجة الامتحان . . لم يسعنى إلا أن أصطحبها إلى الأستاذ الصديق الدكتور

فدفع الله الخطيب ، ورجوته أن يمكنها من رؤية ورقة إجاباتها حتى تستقر ، وتهدأ ، وتتزعج نفسها من الحالة النفسية الأليمة التي انتهت إليها بسبب رسوبها في تلك المادة .

وبمبادرة طيبة من الأستاذ ذى القلب الكبير وبإدراك واع من جانبها للحالة النفسية التي رأى عليها تلميذته ، قام الرجل فبحث لها عن ورقها حتى وجدها ثم أخذ يقرأها ، وبعد أن فرغ من قراءتها - قال لها :

— لقد كان أستاذ المادة منشغداً بعض الشيء في تصحيحه
ولو أنني أنا الذى قمت بتصحيح هذه الورقة لما أمكن أن ترسبى .
قالت :

— إذن فسوف أتظلم رسمياً إلى العميد .
فقال لها أستاذها الدكتور الخطيب :

— هذا مالا أنصحك به إذ يجب أن تعرفى أن لكل أستاذ طريقته الخاصة في مادته ، ولا يملك العميد ولا غير العميد أن يتدخل في هذه الطرق . ويكفيك أن تأخذى برأى ورأى أنك أدبت واجبك .
قالت :

— مادمت سيادتكم تشهد لى بأننى أدبت واجبى ، فهذا فعلاً يكفينى .

لقد كان صعباً بل كان مستحيلاً - بغير هذا اللقاء الذى تم بين " نادية " وبين أستاذها الدكتور الخطيب أن تهدأ ، أو أن تنتشل نفسها من الحالة النفسية التي كانت قد وصلت إليها . ولكن ، إذا كنت على يقين في هذه المناسبة من شيء ، فإننى على يقين من أن

رسوبها هذا قد ترك في أعماق نفسها جرحاً أليماً لعله لم يندمل حتى غادرت دنيانا .

• • •

يأتى ، بعد ذلك ، « السؤال » الذى نود أن نسأله ، وهو : « هل كانت ”نادية“ - وهى تروم دائماً نحو السماء تتعلق عيونها بها . . . وتتحرق شوقاً إلى الصعود إليها - هل كانت تعيش فى عالم من صنع أوهامها . . . أو كانت تعيش فى واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيلديها ؟ » .

وأجيب عن هذا السؤال بسؤال مقابل ، وهو : « هل يمكن اعتبار العروس التى تم عقد قرانها . . . ولم يبق أمامها إلا تحديد موعد الزفاف - هل يمكن اعتبار هذه العروس ، وهى تطوف بدور الأزياء باحثة عن أجمل قماش يمكن أن تصنع منه ثوب عرسها . . . ثم وهى تقلب أحدث ”مجلات“ الأزياء باحثة عن أحدث طراز يمكن أن تصنع ثوبها على غرار . . . ثم وهى تطوف بأفخر محلات الأثاث لتنتقى منها أرقه وأجمله ، وأرشفه ، لتزين به عش أحلامها - هل يمكن اعتبار هذه العروس وهى تفعل هذا كله ، تعيش فى عالم من صنع أوهامها ، أو أنها تعيش فى واقع حى تزيده هذه الأشياء كلها ، تجسداً . . . وتحديدأ . . . ووضوحاً ؟ »

أعتقد أن الجواب عن ذلك السؤال من البدهة بحيث لا أجدنى محتاجاً إلى تكراره .

وأستطيع أن أقول القول نفسه بالنسبة ”لنادية“ . فإنها فى ترويمها الدائم نحو السماء . . . وفى تعلق قلبها وعينيها بها . . . وفى تحرق فؤادها لطفة على الصعود إليها - لم تكن ”نادية“ فى كل ذلك الذى كشفت لنا

عنه خواطرها . وكلماتها ، وأحلامها . . . تعيش في عالم من الوهم . .
ولا تبدد نفسها في « شطحات » من الخيال . . . وإنما كانت تعيش في واقع . .
واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيديها . بل تكاد تعرف الموعد الذي
كانت تحس أنها سوف تسافر فيه إلى ذلك العالم الأفضل . . . العالم
« الأكثر شفافية ونقاء » . . . العالم الفسيح . . . الفسيح الذي كانت
تتحرق شوقاً إلى السفر إليه .

فما أكثر ما حدثت أمها — وقبل أن يصيبها أى مرض . . من أى
نوع — بأنها تشعر بأنها سوف تبارح دنيانا هذه وهي ما تزال صغيرة !!
ومع أن قلب الأم كان يرفض ، من أعماق أعماقه . أن يعدّ مثل
هذا الحديث حديثاً جاداً ، فإنها ، أحياناً ، كانت تحب أن تجاريها :
— صغيرة يعنى إيه يا " نادية " . . . أربعين سنة مثلاً ؟ ؟

— أربعين سنة ؟ ؟ دانت متفائلة جداً يا ماما .

— آمال كم يعنى ؟ ؟

— أصغر بكثير . . .

— ثلاثين مثلاً ؟ ؟

— لأ . . أصغر من كده ! !

وتبارح الطمأنينة صدر الأم . . ويحل محلها جزع مكتوم ،
وضيق ظاهر . . لكنها تتابع السؤال :

— أصغر من كده يعنى إيه ؟ ؟

— يعنى عشرين . . . واحد وعشرين . . . حاجة زى كده ؟

— يا شيخه . . قال الله ولا فالك .

وتشيخ الأم بوجهها عن حديث حبيبته الذى يملأ صدرها همماً وضيقاً .
ثم لا تبرح أن تتذكر هذا الحديث . وتذكر به من حولها . . كلما ألت
بزهرتها الحبيبة أزمة من تلك الأزمات التى كانت تلم بها بين الحين

والحين ، فتجعل هذه النبوءة . . أو هذه السن التي حددتها ”نادية“
موعداً لمبارحة دنيانا ، قادرة على القفز إلى ذاكرة أمها .
وصدقت نبوءة ”نادية“ لنفسها . . . !!
صدق الموعد الذي حددته لمبارحة الأرض إلى السما . . . وفارقتنا
وهي في الثانية والعشرين من عمرها !!

وتجرفنى الذكريات . . .

تجرفنى إلى تذكر يوم من أوائل أيام شهر مايو سنة ١٩٦٩ -
آخر الأشهر الخمسة الساحقة التى أمضيتها "نادية" بالمستشفى .
وأمضيناها معها نقاتل شبح الموت ، ويقاثلنا ، حتى انتصر فى النهاية
علينا . . . على كل الجهود التى بذلناها ، وكل الليالى التى سهرناها ،
وكل الدموع التى سكبناها ، وكل الآلام التى سحقتنا حتى العظام .
فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو ، وكان الظاهر لأعيننا أنها تخطو
بخطى واسعة نحو الشفاء . . . فى حين كانت ، فى الغيب الذى لا نعلمه
تخطو بنفس الخطى الواسعة نحو عالمها الذى كانت تحبه ، وتتمناه -
فى ذلك اليوم جلست ملتصقة بى على أريكة كانت موجودة فى غرفها
بالمستشفى . . . ولعلها انتهزت نخلو الغرفة إلا منها ومنى ، وسألتنى :

- يا ترى يا بابا مين فينا أحب واحدة إلى قلبك ؟

- لا أحب أن تتصورى أن هناك أباً يعطى أحداً من أبنائه قدراً
من الحب أكثر مما يعطيه للآخر . إن كل الأبناء بالنسبة للأب ،
وبالنسبة للأم أيضاً ، سواء . ولا أرضى لكائك أن يتصور شيئاً
غير هذا .

- ربما تكون هذه هى القاعدة . ولكن ، لكل قاعدة - كما

يقولون - استثناء .

- إذا كان هناك استثناء حتى لهذه القاعدة ، فلعل الاستثناء

الوحيد لها هو ما قالته تلك المرأة العربية الذكية ، عندما سئلت عن أحب
أولادها إليها ، فأجابت : « صغيرهم حتى يكبر . . . ومريضهم حتى
يشفى . . . وغائبهم حتى يعود » .

- إذن ، فأنا الآن . . . وبحكم كونى مريضة . . . أحب إخوتى إليك ؟

- مؤكد . . .
- وضحكت "نادية" ضحكة فيها غبطة العصفور — وقالت :
- وما رأيك في أن أظل أحبهم إليك ؟ ؟
- قلت لها : وقد استولى على شيء من الدهشة :
- كيف . . . هل تنوين أن تظلي مريضة ؟ !
- غير معقول طبعاً أن أبقي مريضة طول العمر . . .
- إذن . . . ماذا تنوين أن تفعل ؟
- وببساطة شديدة . . . شديدة . . . كأنها لا تقول شيئاً — قالت :
- أغيب

ولو أن "نادية" كانت قد قالت لي كلمة «أغيب» هذه التي قالتها ، في بساطة شديدة . . . شديدة . . . وكأنها لا تقول شيئاً ، في وقت آخر غير هذا الوقت التي كنت أراها فيه تسير بخطى واسعة نحو الشفاء ، لكنت هذه الكلمة جديرة بأن تنفذ إلى قلبي وكأنها طعنة خنجر مسموم . لكنني — والحق أقول — لم أحس للكلمة : وقتها ، مثل هذا الواقع في قلبي .

وعدت لمناقشتها :

- تغيب . . . تغيب فين . . . ها جرى مثلاً ؟
- فكررت ضحكها التي لم تخل من غبطة العصفور — وقالت :
- يعني . . .

واستغرقتها ، بعد هذه الكلمة التي لم تردني علماً بما كان يدور في أعماقها : استغرقتها سرحة خاطفة ، نقلت الحديث بعدها إلى موضوع آخر

ومر على هذا الحديث الذي دار بيني وبينها ذات يوم من أيام شهر مايو : وهي تستعد للخروج من المستشفى الذي لزمته خمسة أشهر

كاملة — مر عليه شهران . . . ثم . . . ثم غابت " نادية " . . .
 فهل غابت لأنها أرادت أن تظل أحب إخوتها إلى . . . وإلينا
 جميعاً ؟

ربما

فإن لله جنوداً إذا أرادوا . أراد .
 ولقد كانت " نادية " — ولا أعتقد أنني أحابها بحسباني أباً يتحدث
 عن قطعة من كبده — كانت واحدة من جنود الله الذين إذا أرادوا ، أراد .
 . . كانت منهم بطهرها ، ونقاها ، وتقاهها . . .
 . . كانت منهم بصومها ، وصلاتها ، وقرآن الله الذي كانت تتلوه
 بلسانها . . . وتحفظه في عينيها وقلبيها .

. . كانت منهم بصبرها المذهل على ما ابتلاها به ربها ، وكأنما
 أراد أن يجعل منه امتحاناً لحقيقة إيمانها به . . فاجتازت الامتحان الإلهي
 بنفس التفوق الذي اعتادت أن تجتاز به كل امتحان دنيوي دخلته ،
 وسط إعجاب الجميع . . وذهولهم . . وحنوهم . . ودهشتهم .
 . . كانت منهم بتقديسها القلب والقلب للآمها ، وتطلعها الصادق —
 أصدق ما يكون الصادق — إلى تعويضها ، وإسعادها ، وإسعاد ذلك
 القلب الكبير الذي وصفته هي نفسها . . . « بأنه يعطي . .
 ويعطي ، دون أن يطلب . . ولن يطلب » .

. . كانت منهم بإيمانها النابع من أعماق أعماقها بالله . . وبالجنة
 وبالنار . . وبالثواب والعقاب . . وبأن تكون إلهاً عادلاً لا تضيع
 عنده مثقال حبة من خردل .

. . كانت منهم أخيراً — وهذا هو أهم مؤهل في مؤهلاتها —
 بوجودها المتجه دوماً إلى الله . . المتحرق شوقاً إلى الصعود إليه . . المتلهف
 لهفة مذهلة إلى لقائه . . ومكالمته . . ومناجاته .

وأمضى مع الذكريات

فأتذكر يوماً من أوائل أيام شهر يوليو سنة ١٩٦٩ - نفس الشهر الذى رحلت فيه عن دنيانا فى اليوم التاسع والعشرين منه - فإذا هى تخرج خمسة جنيهات من مدخراتها الخاصة ، وتمد لى يدها بها قائلة :
- خذ الخمسة جنيهه دى يا بابا . . .

- أعمل بها إيه يا "نادية" ؟

- اشترى بها هدية عيد ميلاد اللى مفروض إنى أقدمها لك .

- لكن يا بنتى دانا عيد ميلادى فى أغسطس . . . واحنا الآن فى أول يوليو . فإيه اللى فكرك به الآن . . . ثم إيه وجه الاستعجال فى حكاية الهدية ؟ ؟

- اعمل معروف . . خذ الفلوس واشترى الهدية ، وابقى وريها لى لما تشتريها علشان أستريح .

- يا بنتى

ولم تدع لى "نادية" الفرصة لكى أتم كلامى . .

- إذا كنت بتحبين صحيح . . اعمل فى معروف ، ونفذ لى طلبى ونفذت لها طلبها . . أخذت منها ، فى أول يوليو ، ثمن هدية عيد ميلادى الذى كان سوف يحل بعد ذلك بأكثر من شهر . . . واشتريت الهدية وأريتها لها . . وما تزال كلمتها ، وهى تقلب الهدية بين يديها ، ترن فى أذنى :

- أهو أنا دالوقت أسعد إنسانة فى الدنيا . . .

وساعتها لم أفهم شيئاً . . . ولكنها عندما غابت عنا فى التاسع والعشرين من شهر يوليو - فهمت كل شىء . . . فهمت أنها كانت تحس ، بل أكاد أقول إنها كانت تعرف أنها ، عندما يحل عيد ميلادى



في شهر أغسطس . لن تكون معنا . . . وكان هذا هو سر تلهفها
الملح ، والغريب ، على أن تقدم لي - في أول يوليو - ما كانت تحب
أن تقدمه لي في شهر أغسطس . . . !

. . .

وأتابع المضي مع الذكريات . . .
فأتذكر ذلك اليوم الحزين . . . اليوم التاسع والعشرين من شهر
يوليو سنة ١٩٦٩ - وكنا جلوساً في مدخل البيت تنتظر موعد
خروجها الأخير منه للقاء ربها - فإذا بثلاث من مدرساتها الراهبات
يصلن في نفس اللحظة . .
كن قد زرتها قبل ذلك بثلاثة أيام عندما سمعن أنها قد عادت
فانتكست ، وأن الخطر قد عاد يتهددها من جديد .

وفي ذلك اليوم - التاسع والعشرين من يوليو - عدن ، على غير موعد
ليكررن لها الزيارة . . . فإذا المفاجأة الحارقة في انتظارهن . ولكنهن
لم يتراجعن . . . بل صعدن السلم ، ودخلن البيت الحزين . . . لا
ليعزين الأم التي فقدت قلبها فحسب . . بل صعدن لهذا الغرض . .
ولغرض آخر أكبر وأسمى . . ليستأذن في أن يصلين عليها صلاتهن
الخاصة .

وقامت الراهبات . . . من أتباع " المسيح " عليه السلام . . .
بالصلاة على الشابة المسلمة ، المؤمنة ، وهي ما تزال مسجاة على فراشها . .
وبعد ساعات . . . ساعات قليلة من صلوات أتباع " المسيح "
عليها ، كانت هذه الشابة نفسها هناك . . كانت في المسجد ، تستمع لصلوات
أتباع " محمد " عليه الصلاة والسلام على جثمانها . . .
فأى رضى من الله هذا . . . وأى حب . . . وأى من . . . وأى
احتضان ! !

وإذ وصلت إلى الراهبات الخانيات ، وموقفهن منها . . . وصلاتهن عليها . . . فإنني أحب أن أسأل سؤالاً :

● هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتي أحبتن "نادية" وأحببتهن . . . واللاتي تلقينها بأيدي حانية طفلة لا تتجاوز السنوات الأربع من عمرها ، ولا ترى الدنيا إلا أنها شجرة ورد لا أثر للأشواك فيها — هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتي تلقينها على صورتها تلك ، وتكونت على أيديهم — شخصيتها . . . وأينعت — بينهن — ملكاتها ، وصفاتها ، وكل مقوماتها — هل كن يرينها بالعين التي كنا نراها بها . . . أو أننا نحن كنا نرى فتاتنا بعين خاصة تختلف عن عيونهن . . . « عين منحازة » تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها . . . وتضيف إليها من الصفات ما ليس فيها ؟ لقد استبدتني فضول شديد لأتعرف على إجابة هذا السؤال . . . فإن الإجابة عنه جديرة بأن تثبت نظرتنا إليها ، أو تعود بنا إلى شيء من المراجعة على هذه النظرة يضعها — برغم كل العواطف وفوقها — في موضعها الصادق ، والصحيح ، والأمين .

ومن ثم ، توجهت بسؤالي إلى اثنتين من هؤلاء الراهبات : كانت من أكثر مربياتها احتكاكاً بها ، وتعرفاً على كل خصائص شخصيتها . . . فكانت كل منهما أكثر سعادة من الأخرى بأن أتبحث لها الفرصة لكي تقول رأيها فيها . . . وكانت كل منهما حريصة على أن تسجل هذا الرأي كتابة . . .

● فكتبت إحداهما — وهي الراهبة «الأخت ماري لبيس»

تقول :

« عرفت "نادية" في الصفوف النهائية من مراحل الدراسة الثانوية . ويمكنني القول إنني شهدت توجساتها ، وآمالها . وكانت مملوءة حيوية ، ونشاطاً . . . تراقب — بوعى — عالم الشباب ، ونفسياته . وقد تأملت

”نادية“ كثيراً — وهى لا تزال صغيرة — للظلم الاجتماعى ، والآلام السائدة فى كل مكان . وكانت دائمة التساؤل : ” هل من الممكن أن نتغاضى . . . أو أن نكون سلبيين ، وسعداء أمام هذه المصائب؟ وما معنى الحياة إذا هو تركز فى الراحة المادية والمال ؟ وما معنى السلام الذى نشتره كل يوم بتنازلات من جانبنا ؟! “

« وكانت ” نادية “ ترفض الحياة العادية بكل أنانياتها ، فاختارت أن تمضى إلى نهاية ما وضعته نصب أعينها . . . وبدأت . من هنا ، لمغامرة الكبرى

« لقد كنا نحن الذين عرفناها — أكثر من أى أحد غيرنا — كنا نجد صورة الله فى كل تصرفاتها وتساؤلاتها . . فى شكوكها أحياناً . . . وفى قراراتها وتراجعها أحياناً أخرى . وكان كل من له عينان ليرى ، وأذنان ليسمع ، يستطيع أن يستشف وجود الله ، وعظمته ، فى هذه النفس البشرية !

« إن حياة ” نادية “ الروحية ، وطريقة صلاتها ، وشعورها بالله ، وبالأخرين . . وفرحها وشعورها بالألم — كل هذه الأشياء كانت خاصة بها ، اكتسبتها بتكوينها ، وأنوثتها ، وثقافتها ، وتجاربها فى الحياة ، واحتكاكها بالأخرين . وكان معظم كل ذلك مؤسساً على قراءتها للقرآن الكريم الذى كانت تحب دائماً أن يكون بجوارها ، وعلى درجتها . « ولأن ” نادية “ كانت ترفض الحياة العادية بكل أنانياتها ، فقد

روضت نفسها على الصبر ، والتعمق فى صورة الله ، وملكوته وأمام هذا الغذاء الإلهى اكتشفنا شخصيتها المتطورة ، وهذا ما جعل ” نادية “ قريبة منا . وكنا نرغب محاولاتها للخروج من قوقعتها ، على أن تكون أمينة — فى الوقت نفسه — مع نفسها ، ومع مثلها العليا ، وتساؤلاتها ، وواقعيتها . ووعيتها .

« لقد كانت "نادية" عظيمة . وقد استمرت هذه العظمة من معرفتها العميقة لحدود عليها أمام الله . وسوف تبقى "نادية" رمزاً للشباب الكريم القادر على التضحية حتى بنفسه فداء لهذه القيم السامية .
« إنها واحدة من تبشير الربيع الغنى . . ربيع الوعود المشرقة لعالم الغد »

● وكتبت « الأخت مونيكا » - كبيرة الراهبات بمدرسة « نوتردام

ديزابوتر » :

« عندما تمر صورة "نادية" في خاطري ، أراها وهي تدخل روضة الأطفال وهي ما تزال في سن الرابعة . وقد وضحت شخصيتها وهي في هذه السن المبكرة ، فكانت شديدة الحيوية ، شديدة الذكاء . . . ومنذ ذلك الحين وهي محبوبة من الجميع .

« ولقد استمرت "نادية" على هذا المنوال خلال سنى دراستها كلها حيث نبتت فيها صفات أخرى . فكانت لها شخصية بارزة ... وكانت صراحها التي بلغت أقصى الحدود من أبرز صفاتها المميزة وعندما كانت تختلف مع أحد مدرسيها مما كان يضطرها إلى الحضور لمقابلتي ، كان بوسعي مناقشتها وإقناعها ... ولم تكن تتركني أبداً دون أن تعدني باتباع الإرشادات التي كنت أزودها بها .

« وقد حصلت "نادية" على شهادة الدراسة الإعدادية سنة ١٩٦٣ ، وبعدها حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية سنة ١٩٦٦ . ثم تركتنا لتلتحق بالجامعة ، ولكنها لم تنس مدرستها قط . وكانت أصالتها تتجلى في المناسبات المختلفة بشعور بالغ الرقة ، كما كانت تقوم بزيارتنا ، بين حين وآخر زيارة مفاجئة تسعدنا بقدر ما كانت تسعدها .

« ولقد عرفنا "نادية" أكثر ، وأكثر ، في أثناء مرضها . ومع

أنه لم يكن في استطاعتنا أن نفعل لها شيئاً نخفف به من حدة الآلام التي كانت تعانيها ، إلا أنها كانت قادرة على أن نشعرنا بأن زيارتنا لها تقوم بدور ملحوظ في رفع روحها المعنوية .

« وأمام شجاعته في احتمال الألم ، كنا نتركها ونحن أشد ما نكون حزنًا عليها . . . وأشد إعجاباً بقوة شخصيتها ، وبإيمانها الشديد بالله ، وبالأطباء الذين كانوا يعالجونها . دون أن تفقد الأمل في أنها سوف تشفى .

« لكن الله لم يرد . . . وانتقلت «نادية» إلى جواره . . . وحققت مثلها الأعلى . وكل رغباتها النبيلة .

« وهي هناك تطل على كل الذين أحببتهم . . . والذين مازالت ، بالنسبة لهم ، حاضرة بينهم . وسوف تظل ذكرى «نادية» حية دائماً في نفوسنا ، إذ لا يمكن لكل من عرف «نادية» أن ينساها . »

• • •

وهكذا ترى أن النظرتين لم تختلفا في شيء . لقد كانت الراهبات الطبيبات التي تلقينها بأيد حانية طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها . . . وظلت بينهن تنمو وترعرع . وترعرع معها ملكاتها ومواهبها ، ولم تتركهن منذ ذلك الحين إلا لتدخل الجامعة — كانت هؤلاء الراهبات الحانيات يرينها بالعين نفسها التي كنا نحن نراها بها . فلم تكن عيننا إذن عيناً «منحازة» تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها ، وتضيف إليها من الصفات ما ليس فيها .

وليس لهذا الاتفاق في النظرتين : نظرة الراهبات الطبيبات . . . ونظرتنا . . . غير معنى واحد . ذلك أن شيئاً واحداً من مقومات شخصيتها . ومن عناصر شواغلها ، وآمالها ، وآلامها ، لم يكن مبهماً أو غامضاً

بالنسبة لكل من عايشها ، وعرفها : وأتيحت له فرصة الاحتكاك المباشر بها . لقد كانت « كتاباً مفتوحاً » بالنسبة لجميع من عرفوها كتاباً تسهل قراءته على من يجيدون القراءة كل الإجابة وعلى من لا يجيدون القراءة إلا بعض الإجابة سواء بسواء .

ولكم كانت دهشتي عندما قرأت ما كتبه عنها الراهبتان الطيبتان : ووجدت أن أشياء كثيرة مما كتبه عنها ، تكاد أن تكون قد جاءت — وبشفس حروفها — فيما كتبه عنها وكأن الراهبتين الطيبتين قد قرأتا هذه الصفحات ، وتأثرتا بها ، وانفعلتا معها ، مع أنهما لم يريا — بعد — سطرأ واحداً من سطورها .

لقد تحدثت كل منهما عن شخصيتها التي كانت بارزة وعن صراحته المطلقة التي كانت واحدة من أبرز ميزاتها وعن أحزانها من أجل الآخرين ، وتألمها لآلامهم وعن رفضها للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها وعن تعلقها ، بسبب ذلك كله ، بالله وملكوته وقرآنه الذي قالت إحدى الراهبتين إنها — أعني « نادية » — كانت حريصة على أن تضعه دائماً بجوارها وفوق درجها ! !

وتحدثتا عن شجاعته المذهلة في احتمال آلام مرضها وهي شجاعة قلت عنها في صفحة سبقت إنها كانت مثار دهشة أطبائها ، وإعجابهم في وقت معاً !

ومن الغريب حقاً أن يجيء حديث إحدى الراهبتين الحانيتين عن « رفض نادية » للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها « متفقاً تماماً مع آخر تشخيص طبي لطبيبها المعالج . فلقد قال لنا في آخر مرة رأها فيها ، وكان ذلك قبل رحيلها بأسبوع واحد فقط ، قال لنا : « إنها ، الآن ، سليمة تماماً من كل مرض عضوي أما كل مظاهر المرض العضوي التي

نراها عليها ، فليست إلا تعبيراً عن رفضها الحياة . ثم نصحبنا بأن نخضر لها طبيباً نفسانياً يعالج نفسها . . . أما هو فإنه يرى أن دوره في علاجها قد انتهى .

وجاء الطبيب النفساني ليختل بها ساعتين . خرج بعدها من عندها مؤكداً تقرير صديقنا أستاذ الأمراض الباطنية من أنها تمر بحالة « رفض للحياة » . وأضاف : « إن هذه الحالة تعتبر من أخطر الحالات التي يمكن أن يواجهها الطبيب ، ولو أصر المريض عليها لكان معنى ذلك أن تذهب كل جهود الطبيب إلى البحر !! »

ولست أدري ما إذا كان عيباً من عيوبها ، أو ميزة من ميزاتها ، أنها كانت إذا أصرت على شيء فلن يستطيع أحد أن يحولها عنه . ولقد كانت «نادية» مقتنعة ، أقوى ما يكون الاقتناع ، بأن حياتنا العادية هذه... بكل ما تنطوي عليه من ظلم ومن آثام وآلام ، لا تستحق منها أن نحياها . لقد كانت تتحرق شوقاً إلى « الحياة الأخرى » حيث الصفاء والنقاء : والسلام . والحب . كانت تحلم بتلك الحياة ، وتنطلع إليها ، وتستعجل اللقاء بها . ومن هنا : كان صعباً . . . بل كان مستحيلاً أن تسمح لطبيب بأن يحولها عن اقتناعها . . . أو أن تعطيه الفرصة لكي يطنئ - ولو قليلاً - من لظى شوقها .

ولكن . . . لأنها كانت مؤمنة بالله ، وبالشواب ، وبالعقاب - أعمق ما يكون الإيمان ، وأقواه ، وأنقاه - لم تستعجل الوصول إلى « الحياة الأخرى » من طريق تحرمها رضوان الله . . . وتباعد ما بينها وبين جناته التي كانت لا تتطلع إلى شيء ، بقدر ما كانت تتطلع إلى رياضها . ومن هنا . صبرت . . . واحتملت حتى جاءها نداء ربها . . . حتى سمعت « الصوت البهير » الذي أحسبها قد عثرت على سعادتها . . . كل

سعادتها . . . ساعة أن استطاعت أن تلبى ندائه .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
يهدىهم ربهم بالإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم
فيها سبحانك اللهم ونحييهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب
العالمين » .

• • •

إن أشد ما يمسح على جراح قلوبنا التي أدمها رحيلها المبكر غاية
التبكير ، هو يقيننا - أصدق وأتم ما يكون اليقين - أنها هناك بينهم ...
. . . بين أولئك الذين تجرى من
تحتهم الأنهار في جنات النعيم .

. . . بين أولئك الذين هم في
جنات وهر . في مقعد صدق عند
ملك مقتدر .

. . . بين أولئك الذين يدخل عليهم
الملائكة من كل باب . سلام عليكم
بما صبرتم فنعم عتي الدار .

لقد تعرفت "نادية" على مكانتها
عند ربها ، قبل خمس سنوات من
رحيلها عن دنيانا - تعرفت "نادية" على هذه المكانة عندما كتبت
في مذكراتها في فبراير سنة ١٩٦٤ تقول :

● « أماء ما أحلى اللقاء . . .
« إني أسمع الصوت البهير ...

وإشارة الملكوت نحوى والنقىر .
 أماء هذا الضوء من ربى القدير
 ونداء : لىلى . . هبى من نوم
 صغير

« لىلى اصعدى نحو السماء ..
 نحو الله . . و بجانب الرب الغفور
 » أماء إنى صاعدة . . أماء
 إنى فى حبور
 « أماء لا تبكى . . فى
 جناته أحياء وأطير .

ولست أستطيع . وأنا أروى هذه الصفحات من حياة ابنتى ، أن أنسى أنه كان "نادية" عند مغادرتها المستشفى - وفي أحضانها وأحضاننا جميعاً ، أمل زاه بأنها قد سلمت من كل خطر كان يهددها - لست أستطيع أن أنسى أنه كان لها عندى مطلب : أن اصطحبها إلى أى مكان ، وكل مكان تحب أن تذهب إليه . وكان وعداً صادقاً منى بأننى سوف أضع نفسى تحت تصرفها فى كل ما تريد أن تفعل . . . ولم يكن هناك شىء يمكن أن يسعد قلبى ، ويمسح عنه أحزان الأشهر السبعة الأليمة ، والمريرة التى عشتها بجوارها أقاتل اليأس ، وأتقرب إلى الأمل . . أكثر من أن أراها وقد توافرت لها القدرة على تحقيق ما تريد أن تفعل .

وحققت "نادية" ما أرادت . . . اصطحبها إلى كل مكان أحببت الذهاب إليه . فذهبنا يوماً إلى «كازينو ميرلاند» . . . ويوماً آخر ذهبنا إلى «فندق شبرد» . . . ويوماً ثالثاً ذهبنا إلى «كازينو قصر النيل» . . . ويوماً رابعاً اصطحبها معى فى السيارة ، فطافت بشوارع القاهرة التى كان قد مضى عليها أكثر من سبعة أشهر لم تر أضواءها .

وهكذا . . . لم يعد هناك مكان أحببت "نادية" الذهاب إليه ، وحيل بينها وبينه . . . لم يعد هناك من الأماكن التى أحببتها . . . وأحببت الذهاب إليها بكل ما انطوت عليه جوانحها من حب ، ومن شوق ، وكلفة . . غير «السماء» . . . وحتى «السماء سافرت» "نادية" إليها .

هى .. ونفسها !

ترى .. هل حملت "نادية" نفسها الغضة فوق ما تطيق ، حتى ناءت هذه النفس – قبل الأوان – بما احتملت .. ؟

سؤال لىست الإجابة عنه بالشىء الصعب .. بل هى إجابة نستطيع أن نصل إليها فى سهولة ويسر ، من خلال أفكارها التى عرفناها .. ومن خلال شواغلها التى لمسناها .. ومن خلال المشاعر الكبيرة والعميقة التى رأيناها تعتمل فى أعماقها .. وتحملها من أحزان النفس وآلامها مالم تستطع أن تحمل .

فإن فتاة تعيش – وهى ماتزال فى الرابعة عشرة من عمرها – « ثورة الجزائر » ، بكل كيانها .. وبكل حماسها وحبها .. فتكتب عنها القصص وتقول فيها الشعر ، وتحفظ بين أوراقها الخاصة جدًا بصور قادتها ، وأبطالها ، وشهادتها ، وكأنهم بعض أفراد أسرتها . !!

ثم تذرف الدموع سخينة من أجل كاتب فرنسى حر « كألير كامى » الذى لم تعرف منه غير فكره المفتوح ، وغير تعاطفه الوجدانى مع ثوار الجزائر الذين كانت تعيش بكل قلبها معهم ، وتسرح بخواطرها إلى أرضهم ، وتتمنى بين ما تتمناه من أغلى الأمنى أن تكون بين صفوفهم لكى تقاتل معهم ، وتنتصر معهم ، أو تستشهد معهم على تلك الأرض التى عشقتها ، والتى قالت عنها فى قصتها : « أمنية » – المنشورة فى غير هذا المكان من هذا الكتاب – « إنها ستظل عربية .. عربية .. عربية » على الرغم من أنها – أعنى الجزائر – كانت ماتزال أسيرة فى قبضة الفرنسيين ..

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرنسيين كانوا ما يزالون ينظرون إليها باعتبارها امتداداً طبيعياً لبلادهم .. لفرنسا !!

ومن عجب — وما أكثر ما يدعو إلى العجب فيما كان يصدر عن فتاتنا ، وبخاصة في أيامها الأخيرة — أن تسمعها أمها ، في اللحظات السابقة مباشرة على رحيلها عن حياتنا الدنيا ، تتمم لنفسها بصوت واهن لا يكاد يسمعه أحد .. وكأنه يصل إلى الأرض من قمة جبل — قائلة وهي ترمي بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً :

— رائعة .. رائعة !

وتسألها أمها في فضول :

— من هي يا ابنتي . ؟

فتجيبها " نادية " ، وهي ماتزال ترمي بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً :
قائلة :

— الجزائر ... !!

ولم تفهم أمها من هذه الإجابة شيئاً أكثر من أن ابنتها كانت ترى « الجزائر » رأى العين ، في حين لا يشاركها أحد من كل الذين كانوا يجلسون حولها هذه الرؤية .. ولم يسع الأم إلا أن تحترم ما تتمم به ابنتها لنفسها ، وتسكت عن الكلام معها .. مكتفية بأن تذرف الدموع في صمت جليل .

• • •

وإن فتاة تعتصر قلبها الصغير عسراً حتى لتحيله إلى دموع تنساب من عينيها حزناً على بضعة من تراب وطنها وقعت أسيرة في قبضة أعدائه ثم لا تضن بدموعها من أجل مجموعة من رياضيي بلادها سقطت بهم الطائرة في قاع المحيط ، دون أن تربطها بواحد من تلك المجموعة صلة ؛

إلا صلة الأخوة في الوطن .. ثم تألم : أعمق ما يكون الألم ، من أجل فتان أجنبي ” كفان جوخ “ يضطهده الناس .. وتضطهده الأقدار .. فتحزن لحزنه ، وتتعذب لعذابه ، وتعطيه من مذكراتها الشخصية حيناً لم تعطه لشأن من شئونها .. ولا لألم من آلامها .. ولا لأمل من آمالها .

وإن فتاة تبكى ، أحربكاء ، ساعة أن تسمع نبأ اغتيال الرئيس الأمريكي ” جون كيندى “ .. ثم تفسر ، بعد أن تهدأ السر في بكائها الحار بأنه لم يكن من أجل شخص ” جون كيندى “ بقدر ما كان من أجل زوج أمريكا الذين شعرت ، ساعة سماعها لذلك النبأ ، أنهم فقدوا باغتيال ” كيندى “ زعيماً كان البادى من أقواله وأفعاله يدل على أنه سوف يصبح نصيراً حقيقياً لهم ، ولحقوقهم المقدسة في الحياة والحرية !

• • •

إن فتاة هذه هي حالها .. وهذه هي حقيقة شواغلها ، وأحزانها ، وآلامها .. لم يكن ممكناً إلا أن تنوء نفسها الغضة بما حملت .. ولم يكن ممكناً إلا أن يسقط كيائها الصغير تحت وطأة ذلك العبء النفسى الثقيل الذى كان مستحيلاً عليها احتماله .

لقد كانت نفسها المرهفة تطوف بها حول الدنيا كلها : حول من تعرف ومن لا تعرف .. حول من يجمعها بهم الدين ، والجنس ، واللغة وحول من لا يجمعها بهم دين ، ولا جنس ، ولا لغة .. كانت نفسها المرهفة هذه أشبه ما تكون بطائر مهاجر .. لا يستريح إلى غصن ، ولا يستقر على فن ، وتظل رحلته إلى الأرض التى يقصدها شاقة ، ومضنية ، وقاسية ، حتى يعثر أخيراً على الأرض التى يقصدها .. أو يموت قبل أن يصل إلى هذه الأرض !

وكالطائر المهاجر .. كانت نفس "نادية". ولقد نجح طبيبها المعالج "جمال مجاهد" في أن يستكشف نفسها مع استكشافه لمرضها .. ولأنه استكشف هذه النفس ، وما يعتمل في أعماقها ، على الرغم من كونه أستاذاً في الأمراض الباطنية ، وليس في أمراض النفس ، فقد وصف لها - وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٩٦٨ - كتاباً تقرأه . وكان الكتاب هو : « الوادى المقدس » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقال لى الطبيب الصديق : فيما بينى وبينه .. وبعد أن وصف لها « الوادى المقدس » كعلاج لمرضها : « إننى أشعر بأن ما تشكو منه إنما هو علة من علل النفس ، أكثر مما هو داء من أدواء الجسد ، وأعتقد أنها سوف تخلص من كثير مما تشكو منه بقراءتها لهذا الكتاب » .

وكان « الوادى المقدس » - حقيقة - واحداً من الكتب القليلة الرفيعة التى تستطيع أن ترتاد بالنفس البشرية شاطئ السكينة والاطمئنان ، وتنقذ عن هذه النفس كثيراً من قلقها إن كان بها قلق .

وجاءت "نادية" بكتاب « الوادى المقدس » وقرأته .. وتوقفت طويلاً عند الصفحات الأولى منه ، وكتبت على هوامشها : « رائع .. رائع » . كاتب الصفحات التى توقفت « نادية » طويلاً عندها ، هى هذه التى يعرف فيها "د . محمد كامل حسين" الوادى المقدس بقوله :

« الوادى المقدس هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من الزمن ، وهو الحال النفسية التى تسموها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل .

« هو حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيماناً قوياً خالصاً لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف . هو حيث يملك عليك هذا

الإيمان عقلك كله وإرادتك كلها .
هو حيث تقف خاشعاً في غير رهبة ،
خاضعاً طواعية للمثل التي ترضاها
لنفسك وإن لم يشهد عملك رقيب ، لا
يحملك على مشقة ذلك إلا الإيمان
وحده ، لا ترجو على ما تعمل جزاء
ولا تخشى عقاباً .

« هو حيث يحتوى قلبك حب
عميق خال من كل غل أو حقد ،
لا يعتريك فيه قلق أو ندم ، ولا
يصيبك فيه خيبة أو يأس .

« وهو حيث تهتدى إلى الحكمة
والتفكير المستقيم . حيث تطلع على
حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة
وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا
تردى في ظلام الجهل أو ضباب
الخطأ .

« وهو حيث آمالك كلها خير
وأحلامك كلها جميلة . لا يقع
الشر منك ولا يقع الشر عليك .
حيث تكون الطبيعة ، وجسمك ،
وعقلك ، ونفسك متوافقة توافقاً
موسيقياً تكمل به السعادة الإنسانية .
« وهو حيث تسمع صوت ضميرك

صريحاً واضحاً آمراً بالخير في غير لبس
هادياً إلى الحق في غير تردد ، كأنه
صوت الله .

• • •

في « الوادى المقدس » تتحقق
لك أحلام كلها خير

« ينخل إليك فيه أن القوى الطبيعية
زال عنها شرها كله ، ولم يبق منها
إلا خيرها . فالنار تضيء ولا تحرق ،
والفراشة تشتاق إلى اللهب فتقع عليه
ولا يصيبها منه أذى .

« وينخل إليك فيه أنك بمعزل
عن الزمن وما يحدثه في أمور الناس
من فساد . عالم يشمل فيه الخير كل
شئ ، وفيه يتحقق أمل كل مخلوق .
صفات ليست غريبة على جنة
القدس .

« الوادى المقدس يكون حيث
تريد وحين تريد ، لا يحده مكان
ولا زمان . لا يحده تعريف ولا وصف
بعينه ، فحيثما تطهرت نفسك . .
وحيثما عملت عملاً جميلاً فثم واديك
المقدس .

« واديك المقدس هو المأوى الذى
 يقىك عواصف الشر ، هو كمال
 سعادتك إن كنت سعيداً . وهو
 أملك الوحيد إن كنت شقيماً ،
 ولا غنى لك عنه فى حالتى النعيم
 والبؤس . هو فى النعيم هداية . .
 وفى البؤس أمل وعزاء .

« فإن كنت ممن يعملون الخير
 عفواً ، ويتجنبون الشر عرضاً دون
 أى إيمان ، خالص أو حب عميق
 أو حكمة واضحة . فإن الخير الذى
 تعمله لا يجلب لك الرضا الذى تطمئن
 به النفس الإنسانية ، فهو خير أبتز
 لأنه فى غير الوادى المقدس .

« والوادى المقدس هو جنتك
 التى تتقى بها ظلم الظالمين : فيه ترى
 نفسك أعظم خالقاً وأعلى قادراً ممن
 ظلموك ، ويكفيك هذا السمو
 مرضاة لك دون أن تثور فيك عاطفة
 سقيمة مردولة كالانتقام أو الثأر
 من الظالمين . والظلم والانتقام سلسلة
 من الشر متصلة منفرعة لافكاك
 منها .

« في الوادى المقدس ينظر المتطهرون
إلى غير المتطهرين من الظالمين
مشفقين عليهم ، كما ينظر أهل الجنة
إلى أهل النار .

* * *

« والنظام القائم بين الناس ، حتى
اليوم ، فيه مرتفعات وسهول ووديان
وفوق المرتفعات أقزام هم دونك قدراً
وهم أقل منك علماً وحكمة وخلقاً ،
ولكنهم يتحكمون في أمور حياتك
بقوة ارتفاعهم عنك ، فهم أعلى منك
وإن لم يكونوا أطول قامة ، ولا أعظم
نفساً .

« وفي الوديان قوم يرون أنك
منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك .
أما في الوادى المقدس ، فلا يتفاضل
الناس إلا بقدر ما فيهم من خير
يسمو فيه المظلوم — وإن كان متواضعاً —
فوق الظالم ، وإن بلغ السماء عظمة .
وشغل الناس بمجده وجبروته ،
ذلك أن الظالم لا يستطيع أن يستمتع
بأمن الوادى المقدس مادام ظالماً .
« فإذا رأيت نفسك في قبضة
« شر لا تستطيع له رداً ، وإذا اعتراك

اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة .
 وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة
 في النظم التي لا تستطيع تغييرها -
 إذا حل بك هذا الظلم . فليس لك
 إلى النجاة من سبيل إلا أن تأوى
 إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص
 من اليأس والقلق .

» . . .

كانت تلك هي الصفحات الأولى من « الوادى المقدس » التي توقفت
 « نادية » طويلاً عندها .. لتكتب على هوامشها ، بعد ذلك التوقف
 الطويل « رائع .. رائع » وكأنها تصفق للمؤلف في حرارة وإعجاب . إلا أن
 الكتاب ، مع ذلك ، لم يحدث بنفسها القلقة المرهقة ، كل الأثر الذي
 كان طبيعياً المعالج ينشده من وراء نصيحته لها بأن تقرأه .. ولم يكن
 لذلك من سبب إلا أنها كانت تضع إحدى عينيها على الكتاب ، على
 حين تضع عينها الأخرى على حياتنا الدنيا ، وعلى ما يدور فوق مسرحها
 الكبير من مأس كثيرة ، ومريرة ، تكفى كل واحدة منها لأن تبدد من
 نفسها كل أثر طيب يمكن أن يتركه « الوادى المقدس » فيها .. ولست
 أرى في هذا ما أعده غريباً بالنسبة لها . فلقد التقينا بإحدى مربياتها -
 الأخت الراهبة « ماري ليس » - وهي تحدد لنا بعض ما كان يشغلها .
 ويعتمل في أعماقها بقولها :

« كانت « نادية » ترفض الحياة
 العادية بكل أنانياتها . . . وكانت
 دائماً التساؤل : هل من الممكن أن
 نتغاضى . . . أو أن نكون سلبين

وسعداء أمام هذه المصائب ؟ وما معنى
الحياة إذا هي تركزت في الراحة والمال ؟ وما
معنى السلام الذي تشتريه كل يوم
بتنازلات من جانبنا ؟ »

ولأنني لأعد هذا الذي قالته عنها مربيتها ، في سطر أو سطور ،
أدق تلخيص وأصدق لمأساة حياة فئاتنا كما عرفناها نحن ، وعشناها ،
وعانيناها . فلقد كانت حياتنا الدنيا ، بوجهها القبيح ، تعذيباً .
كان إنكار الأفراد بعضهم بعضاً ، واضطهاد الجماعات بعضهم بعضاً
يقلقها .. ويؤرقها .. ويفسد عليها طعم الهناء الذي كان من حق عمرها
عليها أن تدع لنفسها الفرصة لكي تتذوقه وتعيشه .

وما أحسب أن ”نادية“ قد اختارت لنفسها « طريق العذاب »
بإرادتها ، بل هو شيء خارج تماماً عن تلك الإرادة ، فإنني أراها
قد حملت إحساساتها بآلام الآخرين ، وعذابهم ، وأحزانهم ،
كما حملت أية قسمة من قسمة وجهها .. ليس لها يد في هذه
كما ليس لها يد في تلك .. وإنما هكذا خلقت ، ولم يكن لها من خيار .

على أن هذه الصورة الغارقة في رهافة الحس التي خلقت
عليها ” نادية “ ليست مطلقاً بالصورة التي تدعونا إلى أن نأسي
من أجلها .. بل هي ، على العكس من ذلك ، صورة تدعو إلى
الاعتزاز العميق بأن خلقت فئاتنا عليها ، على الرغم من أنها - أعني
رهافة حسها - قد أوردتها . وهي ما تزال تخطر نحو أجمل سنوات عمرها ،
موارد الألم والعذاب . فليس هناك أجمل بالنسبة للإنسان .. أي
إنسان .. من أن يكون إنساناً بحق .. وهو لن يكون إنساناً بحق إلا إذا
أحس بآلام الآخرين . وعاش عذابهم ، وتألم لآلامهم .. أما ذلك
الذي يغلق نفسه على نفسه .. ويوصد باب قلبه دون أحزان الآخرين .

وآلامهم . فهو يمكن أن يكون أى شىء ، إلا أن يكون إنساناً جدير
بكلمة « إنسان » .

وإننى لأذكر — بالكثير من الاعتزاز والرضا النفسى — ذلك اليوم
الذى عادت إلينا فيه «نادية» من الجامعة . وهى محزونة القلب باكية ..
وكان السبب فى حزنها وبكائها أن كمسارى «الأمينوبوس» الذى كانت
عائدة به هدد سيدة فى عمر جدتها بالصفع على وجهها . وهم بأن يفعل
ذلك لولا أن منعه نقر من الركاب . !!

قالت لى «نادية» وهى تحكى لى الحكاية :

— لقد تصورت أنا هذه السيدة العجوز هى جدتى ، وأن الكمسارى
قد نفذ فيها تهديده وصفعها فعلا على وجهها .
قلت لها . محاولا التخفيف عنها :

— ولكن .. بما أن ذلك لم يحدث ، فليس لك أن تبكى .. ولا أن
تخزنى .
قالت :

— إذا كان ذلك لم يحدث ، فلسبب خارج عن إرادة الرجل .. فقد
تكاثر عليه الركاب ومنعوه من تنفيذ تهديده . أما لو كانوا قد تركوه
لإرادته لما تردد لحظة فى أن يصفع هذه السيدة التى كانت فى سن
جدتى .

ثم أضافت ، وهى ماتزال غارقة فى حزنها من أجل تلك
السيدة العجوز :

— لقد اعتزمت أن أشكو فى هذا الكمسارى إلى رؤسائه .
ومن أجل هذا التقطت رقم «الأمينوبوس» ، كما جئت بأسماء بعض
الركاب الذين شهدوا الحادث ، وعناوينهم !

قلت لها :

— أريخى نفسك .. فإن رؤساء هذا الكمسارى لن يفعلوا له شيئاً ..
ولو كان هو يعلم أن رؤساءه قادرون على محاسبته : لما أقدم أصلاً
على ما أقدم عليه .

فنظرت إلىّ ، وقد امتلأت عيناها بالدهشة من إجابتي ، وقالت :
— ليكن ما تقوله صحيحاً ، فإن ذلك لن يمنعني من أن أنفذ ما اعترمت ...
على الأقل لكى أريح ضميرى .

* * *

وهكذا كانت عينا "نادية" مفتوحتين دائماً — وأشد ما يكون
الانفتاح — على « العذاب » .. تلتقطانه من أى مكان : ومن كل مكان
من أى شيء . ومن كل شيء .. من مشهد تشهده : ومن كتاب تقرأه
ومن صورة تراها ثم لا تترك النسيان يجور عليها .. بل تحتفظ بها بين أوراقها
الخاصة لكى تعود : بين الحين والحين ، فتعاود النظر إليها — كصورة
ذلك الراهب الذى أحرق نفسه احتجاجاً على الحرب فى « فيتنام » والى
حدثك عن أننا وجدناها محتفظة بها بين أوراقها .. وكأنها كانت تريد
أن تحتفظ بصورة « العذاب » بين أغلى ما كانت تحفظ من ذكريات !!

وهى والآخرون !

كانت "نادية" فى كل تصرفاتها ، وفى جميع مراحل عمرها ،
« إنسانة » بحق .. فهى كانت إنسانة تحملها إنسانيتها
ما لا طاقة لها به .. تأسى إلى حد البكاء بالدموع .. من أجل
كثيرين لم ترهم . ولم تعرفهم ، بل لم تعاصرهم . ومن ثم فإنها لم تعدم ،
حين غادرت حياتنا الدنيا ، كثيرين يأسون من أجلها ، ويذرفون
دموعهم حزناً عليها .. على الرغم من أنهم لم يروها ، ولم يعرفوها ، ولم
يسعوا بها قبل أن يروها خيراً فى صفحة الوفيات . ومن هؤلاء
طالب بكلية الطب بالمنصورة : اسمه : « محمد على المخزنجى » . لن
أستطيع . منها حاولت ، أن أنسى أساه عليها .. وحزنه من أجلها .
وهو : فى تقديرى ، لم يهتر تلك الهزة العنيفة التى اهترها إلا لأنه ، كما وضح
من السطور التى كتبها لى - على غير معرفة - معزياً فيها ، يحمل
نفس تركيبها الإنسانى : نفس الشاعر المرهقة ، ونفس التألم لآلام
الآخرين ، ونفس الحزن لأحزانهم ، ونفس العذاب لعذابهم
وإبنى لأستاذك فى أن أدعوك لتقرأ معى رسالة طالب الطب الذى
لم ير "نادية" .. ولم يعرفها .. ولم يعرف منها غير صورتها التى نشرتها صفحة
الوفيات . إننى أدعوك لذلك لأحفظ عليك إيمانك «بالإنسان» .. وبنقائه ..
وبأنه ، على الرغم من كل شيء ، لا يزال أقوى من ذلك الضباب الكثيف
الذى كثيراً ما يغشى إنسانيته إلى حد يكاد يقودنا إلى شيء كبير من
اليأس منها ، إن لم يكن إلى كل اليأس منها .
ولنقرأ معاً رسالة طالب الطب :

...دى...

« لست أدري بالتحديد ما هو
 ذلك الشيء الذى يدفعنى إلى الكتابة
 إلى إنسان لا يعرفنى ولا أعرفه .
 ربما يكون ذلك ما يسمونه بعملية
 التفريغ النفسى .. وربما أى شيء
 آخر .. لا أدري ..
 « سيدى ..

« فى صباح الخميس الماضى ..
 وبينما أتصفح الجريدة ، وقعت عيناي
 على صورة فتاة رقيقة صغيرة . .
 ربما تكون فى نفس عمري . كانت
 تبسم . . وكأنها تبسم لكل أمنيات
 الأيام الآتية . كانت طيبة لاتدرى
 أن بسمتها تلك ستكون يوماً ما دعوة
 للآخرين فى يوم إحياء ذكرى
 رحيلها .

« طويت الجريدة . . وأخذت
 أصابعى تعصرها فى ألم وكأنها تحتاج
 على ما حدث . أغمضت عيني ،
 ورحت أسائل نفسي : ترى .. ماذا
 كان يضير القدر لو أنه أعطى "نادية"
 بضع سنين قليلة أخرى ، تملأها
 بالحياة .. وبالسعادة .. وبالأمل ؟ !

« ترى .. أى حكمة تلك التى
تكن فى قتل الزهور قبلما يرحل الربيع ؟
« ترى .. أى ذنب ارتكبه ذلك
الكائن الرقيق ليوضع - وحده - فى قبر
من الظلام والصمت ؟ !
« سيدى ..

« صدقنى .. لن أصلى بعد الآن .
لن أصلى حتى تبرأ أصابع الأطفال
المشلولة دون ما ذنب جنوه . لن أصلى
حتى تتمكن الزهور من أن تحيا
ربيعها كاملاً .

« سيدى ...
« أرجو احتمالى .. فربما الآن
فقط .. بعد تلك الكلمات .. الآن
فقط .. أشعر أنى أريد أن أصرخ
فى وجه القدر .. أصرخ كل يوم ..
كل ساعة .

« سيدى ...
« أريد صورة "لنادية" لكى
أضعها على مكتبي إلى جوار صديقها
الفيتنامية الصغيرة التى ماتت لأنها
التقطت قنبلة كانت تحسبها دمية
من تلك التى يلقيها الأمريكيون على
مدارس « هانوى » فى أعياد الطفولة ...

« وثى أعباد الميلاد !! »

« سيدى ... »

« أرجوك .. أعطنى الكلمات التى
تحكى أيام "نادية" : طفولتها ..
طموحها .. آلامها .. آماذا .. أحزانها ..
ومعذرة إذا كنت قد آلمتلك .. فأنا
لا أقصد .. فأنا نفسى آتألم ..
أرجو أن تقدر نوعيتى . »

« عزائى لك .. ولكل الذين
يريدون العدالة من القدر بأن يمنحهم
الحق فى سنين قليلة لا أكثر ..
عزائى لنفسى فى الآخرين .. فى
الزهور »

• • •

تلك كانت رسالة « إنسان » ممن أسوا لموت "نادية" وبكوا لفراقها
دون أن يروها .. ودون أن يعرفوها . ولقد قلت لك إن هذا الطالب الإنسان
لم يهتز تلك الهزة العنيفة التى اهتزها إلا لأنه يحمل فى أعماقه نفس «تركيبها
الإنسانى» ، ونفس إحساساتها ، ونفس نوازعها . ومن الغريب حقاً
أن يتضح ذلك فى إفصاح الطالب الإنسان عن أنه يحتفظ على مكتبه
بصورة لفتاة صغيرة من فيتنام ماتت لأنها التقطت قبلة أمريكية كانت
تحسبها دمية .. فى الوقت الذى كانت فيه "نادية" تحتفظ بين أوراقها
الخاصة بصورة أول راهب فيتنامى أحرق نفسه احتجاجاً على الحرب
فى بلاده : وما أحسب ذلك إلا تأكيداً للقول المأثور : «الأرواح جنود
مجندة .. ما تألف منها أثلف ، وما تنافر منها اختلف» .

ولقد شفع طالب الطب رسالة عزائه في "نادية" وحزنه من أجلها ..
شفع هذه الرسالة برجاء قال فيه :

« أرجو .. مجرد رجاء إنساني ..
أن تضع الأقصوصة المرفقة بهذه الرسالة
مع إكليل زهر على قبر الكائن الوديع
الذي لم أراه إلا بعد رحيله » .

ولقد نفذت للطالب الإنسان رجاءه .. فوضعت ، باسمه إكليلاً
من الزهر على قبر "نادية" . أما الأقصوصة . . فإنني أرى أن مكانها
الطبيعي هنا . . في هذا الكتاب الذي يحكي قصة حياتها ، وليس على
القبر الذي يحوى جسدها .

وهذه هي « الأقصوصة » كما كتبها طالب الطب « محمد على
المخزنجي » ، وقد أسماها : « قطرة الكورال الصغيرة » .

« أطفئت أنوار الصالة . . لتضاء
عند أقصى اليمين المصابيح الشاحبة
الضوء ، والبيضاء ، والوردية ،
والتي في لون السماء . . في دائرة الضوء
الأبيض كان وجهها الطفل يتألاً
كأضواء زورق حالم تنعكس في عيون
نهر صغير .

« كانت شفتاها الرقيقتان ترددان
أغنية عيد دافئة . . كانتا كزهري
قرنفل ورديتين ترصعان صدر ثوب
جان دارك الأبيض . . أما أصابعها
الصغيرة الرقيقة فقد راحت في طفولة

تداعب دمية .

« كانت عيناي تحتضان عينيها
الطفلتين الرائعتين في رقة . في حين
ينساب داخل لحن عيد الميلاد
دافئاً . . سعيداً . كانت ، وأنا ،
كقطعة صغيرة تدفئ صدر طفل وحيد
كلما أقبل المساء .

« كنت أرى عندها السعادة التي
يجب على العالم أن يهبها لكل عصفيره
الصغيرة . . بلا حدود . وبكل الحب .
نهضت من مقعدي ، وماتزال
أغنية عيد الميلاد تنساب في أعماقي
حلوة دافئة .

« اشتريت زهرة قرنفل بيضاء
لكي أهبها لقطعة الكورال الصغيرة
عند نهاية الحفل . . بعدما أنهت
أغنيها الأخيرة ، وعلت أصوات
الأكف تصفق في حرارة وإعجاب .
« غمرت الأضواء جنبات الصالة
التي كانت تحيا أمسية ربيع بين
وريقات البنفسج .

« نهضت من مقعدي ، وأخذت
أبحث عن قطتي . . قطعة الكورال

الصغيرة .. حتى وجدتها .
 « كانت في فرحة الأطفال الصغيرة
 تبسم . . وخطوت نحوها خطوة ثم
 توقفت . . فقد توقفت عيناى حزینتین
 باکیتین علی ” الکول الأبيض “
 الذى يحيط بعنقها الصغير الرقيق . .
 فقد ذكرت لحظتها ، قطرة أخرى
 مثلها . . مثلها تماماً . . حول جيدها
 الرقيق . . كان ” كول أبيض “ . .
 ومع ابتسامتها الودیعة كانت كلمات
 حزينة تدعو الأصدقاء لإحياء ذكراها ..
 ذكرى ” نادية “ .

« تفرقت في عینی دمعان .. وسقطت
 القرنفلة البيضاء من یدی . . وینما
 كنت أنخطو مغادراً صالة المسرح
 كان لحن حزین ینساب فی أعماقی ..
 ومن خلال ستار الدموع تراءت لی
 ندف من الجلید تتساقط علی قبر
 حزین . . وحید . . كتب علی شاهده
 الرخامی الأسود . . بحروف بیضاء :
 وداعاً یا قطی العزیزة ..

نحن . . والموت

والآن . . . ماذا فعل بي موت ابنتي . . . ولها كل هذه الصفات
في مثل هذه السن الباكورة ؟
سؤال أحسب أن كثيرين يتوقون لأن يتوفون مني على الإجابة
عنه .

وأحسبهم سوف يدهشون عندما أقول لهم — بكل الأمانة والصدق —
إن موتها لم يسحقني . . . لم يطحن عظامي . . . ولم يهدم كياني . . .
مثلما سحقني ، وهدم كياني . مرضها . فلقد كان العذاب الأليم
الذي لقيته ابنتي على مدى أشهر سبعة . والذي احتملته في صبر وشجاعة
على الرغم من صغر سنها — كان هذا العذاب الأليم ينعكس على
بصورة مروعة جعلتني أشعر كأنتي واقع بين شقي رحى . . . وأن هذه
الرحى تأخذني ، مع كل آهة تصدر عن ابنتي ، بين شقيها فتطحنني
بقسوة طاغية لا تحطم قلبي فحسب . . . بل تحطم كل شيء في . . .
حتى عظامي .

أما موتها فإنه لم يفعل بي أكثر من أنه جرحني من الداخل جرحاً
عميقاً وأليماً . لكنه لم يحطمني مثلما كنت محطماً في أثناء مرضها ، ولم
يسحقني مثلما كنت مسحوقاً في تلك الأثناء . ويرجع ذلك ، في
يقتيني ، إلى سببين :

أولهما : أن موتها قد وضع حداً لعذابها الأليم الذي كان قد أوقعني
بين شقي الرحى ليدورا — بكل القسوة ، واللامبالاة ، والعنف — فوق
قلبي . . . ولحمي . . . وعظامي . . . دون أن أملك حياال هذه الرحى

شيئاً أقلل به من حجم تلك التمسوة التي كانت تدور بها فوق قنبي . . . ولحمي . . . وعظامي .

وثانيهما : أني أومن إيماناً عميقاً - ليس من إيمان العجائز في شيء - وإِنَّمَا هو إيمان قائم على العقل . والنهم معاً . . . بأن الموت ليس نهاية . . . بل هو بداية : بداية حياة جديدة . وسعيدة . ونقية . وطاهرة . حياة لا ترى فيها ابنتي - هي - ومن سبقوها إليها . ومن سوف يلحقون بها - شمساً ولا زمهريراً . ولا تسمع فيها ابنتي - هي - ومن سبقوها إليها . ومن سوف يلحقون بها - لغواً ولا تأثيماً . . . إلا قبيلاً سلاماً . . . سلاماً .

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَنَّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ »

* * *

« وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُوثًا مَنثورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ
ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَلَيْنَهُمُ ثِيَابٌ سُنَدُسٌ خَضَرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »

۔ ۔ ۔

إن حياة هذه بعض صورتها - لاكل صورتها - كما فصلها القرآن
الكریم ، وحددها . وجسدها : لحديرة بأن تملأ قلوبنا راحة ، وسكينة ،
وطمأنينة على أحبائنا الذين سبقونا إليها ، وعاشوا فيها ، ونعموا بها .
وإذا كان موت ابنتي قد جرحني من الداخل جرحاً عميقاً وأليماً...
فلا يرجع ذلك إلى « الموت » في ذاته . فإنني : كما قد أفضيت إليك ،
لا أعد « الموت » نهاية . وإنما يرجع ذلك إلى « الفراق » الذي يخلقه
« الموت » وراءه كأثر مباشر من آثاره . . . وإلى إحساسي بأنني لن
أعود فأرى وجه ابنتي . . . ولن أسمع صوتها . . . ولن أشاركها ضحكاتها ،
وأملها ، وآلامها . . . إلى أن يأذن الله لي باللاحق بها .

إن « الموت » - وهذه في رأيي هي ذروة مشكلته - يأخذ أحبائنا
بعيداً . . . بعيداً جداً عنا . . . ثم يضع بيننا وبينهم أسواراً وحواجز
لا يمكن تخطيها إلا بإذن علوي من العزيز ، القوي . الحكيم .
إن « الموت » ليس بالشيء الكريه الذي يحاول أولئك الذين
ينقصهم الإيمان بالله ، وبالحياة الآخرة ، أن يصوروه . أو يتصوروه ،
إنما الكريه حقاً هو الافتقار إلى الإيمان « بالموت » باعتباره بداية وليس
نهاية . . . وباعتباره مرحلة انتقال من حال إلى حال . . . ومن حياة
إلى حياة . . . ومن دار إلى دار . . . دار أكثر سلاماً ، وصفاءً ، ونقاءً ،
ورقياً : « وإن الدار الآخرة لحي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

من كتاباتها

● إن التفكير يكاد يقتلني . .
لكنني - وهذه هي مشكلتي - لا
أستطيع أن أعيش بغيره . إن "الفكر"
هو حياتي .

• • •

● الحياة رحلة استكشاف مستمر
لكن المؤسف حقاً أن معظم ما يستكشف
فيها أليم .

• • •

● سهل جداً أن يمشي الإنسان
في طريقه . . لكن الصعب حقاً . .
هو أن يعرف الإنسان كيف يختار
ذلك الطريق .

• • •

● «البحيرة» . . قصيدة «لا مرتين»
الحميلة... تعيش في أعماقي . إنها نداء حار
من الشاعر إلى الطبيعة التي أحبها . . .
والتي يراها كثيراً ما تنسى ، وسريعاً ما تنسى
... لكي تحتفظ ، على الأقل ، بذكرى حبه لها!

• • •

● إننى أمقت "فولتير" . . . أمقته
لأنه قال فى نبينا "محمد" كلمات نابية
لا تصدر إلا عن "ملحد" مثله . وأمقته
لموقفه المزرى من "جان جاك روسو" .
ولا خلاف على أن "فولتير" عبقرى .
ولكنه عبقرى ليس فى أخلاقياته شىء
واحد يستحق الاحترام .

• • •

● ولد "ألفريد دى فينى" حزيناً .
وعاش حزيناً . وكان يرغب فى
حب الطبيعة ، لكنه كان يراها
لا تكثر به . . . ولا بغيره . وكان يرغب -
بقلبه - فى حب البشر . لكن - عقله -
كان ينأى به بعيداً عنهم . وقد بلور
"دى فينى" مشاعره كلها نحو الحياة فى
هذه الكلمة الواحدة : « خلقت الطيور
لتسعد . . . لتحلق فى الهواء ، وتستمتع ،
وتطير . . . أما الإنسان فقد خلق ليشقى
ثم يموت »

ويزيد "دى فينى" هذا المعنى
تأكيداً عندما يقول : يخفق الإنسان
فى تحقيق أمانيه لأنه يجد نفسه وحيداً
فى صلاته . . . وفى حبه . . . وفى تأملاته .

• • •

كلمات احببتها :

● الآن . . . دخل "الإمبراطور
فرد يناند" في مرحلة من العمر أصبحت
فيها « العظمة » بالنسبة له ، « كالأتفاس »
بالنسبة لأي إنسان . إنه لا يجنى منها
أية سعادة . لكنها إذا توقفت يموت !

• • •

● كانت قسما ت وجهه متجهمة
كقسما ت وجه مسافر يعرف أنه ذاهب
إلى نهاية الطريق . ولكنه لا يعرف
ماذا ينتظره عند هذه النهاية !

• • •

● ولد الإنسان حرّاً . إلا أن
حرية تعترضها دائماً عوائق تجعله
يعيش في بؤس !

• • •

● لم تعد الحياة شيئاً سهلاً .
ولكنها أصبحت مغامرة مشحونة بالمخاطر .

• • •

● الوحدة . . . والشقاء . . .
والمسؤولية : ثلاث كلمات تلخص
فيها - بصورة محددة . - ووجزة -
حياة إنسان القرن العشرين .

قصة من رحي الكفاح الجزائري

أمنية . . .

نشرت هذه القصة في مجلة الإذاعة
والتليفزيون بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٦١ —
وكانت سن "نادية" عندئذ . ١٤ عاماً
فقط ! !

تري . . ما هي أمنية حياتي ؟

كم أود أن تتحقق . . إنها تراودني في نهاري . وتداعبني في
أحلامي . . وكلما طافت بقلبي ، سبحت في بحر من الخيال تظلني
على شاطئيه أشجار سامقة زرعها شهداؤنا بأرواحهم . وسقوها بدمائهم .
وتدفعني بطولات الشهداء ، وقصصهم . . تدفعني دفعاً إلى
الإسراع إلى هناك . . إلى جزيرة الكفاح . ضد ذلك العدو . . المستبد .
الغاصب .

لقد نسجت ، في خيالي ، خيوط تلك القصة هناك . . في الجزائر . .
أرضي وأرض آبائي وأجدادي . . هذه الأرض التي هي جزء من فؤادي
النائر ، أغذيها بنضالي . . ونضال إخواني . . وأرويها بدمي ، ودم
الشهداء .

أنا ، الآن ، قابعة في زنانة صغيرة غارقة في الظلام . . ولولا النور
النابع من رضائي عن نفسي ، لقتلني الظلام الذي عجز عن أن يحول
بني وبين أن أسرح بخاطري لأستعيد كل ما حدث لي ، قبل أن يأتي
بي إلى هنا أولئك المجرمون . . الملائكة بدماء الأطهار الذين ضحوا

نحياتهم . وجعلوها قرباناً لاستقلال بلادهم ، وحريرتها . وخلصها من قيود الاستعباد .

في ليلة ما زلت أذكرها . . وسأظل أذكرها إلى الأبد . . جاءني أبي والدماء تنزف من صدره بغزارة كأنها وسام شرف طالما تاقَتْ إليه روحى الثائرة . جزعت من هول المنظر . لكن أبى منعنى من الاستسلام للجزع . . قال لى ، وأنفاسه تن وتقطع :

— ابنتى . . إبنى أعرف أنك لست محتاجة إلى من يحثك على الكفاح ، وعلى بذل روحك دفاعاً عن أرضك . ووصيتى لك أن تحاربى الأعداء . . وأن تظلى تحاربينهم مهما كلفك هذا من ثمن .

ومال رأس أبى . . فأسندته إلى صدرى ، وقلبي ينبض بأكبر الإجلال ، وأكبر الحب . . ويدق . فى نفس الوقت ، دقات الانتصار والثأر . . وقبل أن يلفظ أبى آخر أنفاسه ، قال لى بكلمات كانت ترتعش . . وتتكرر بين شفثيه :

— لا تحزنى علىّ يا بنيتى . . فإننى أشكر الله من كل قلبى أن هيا لى فرصة لقائه . . شهيداً فى سبيله . . وفى سبيل الدفاع عن بلدى . . ثم . . . ثم صعدت روحه الطاهرة فى دعة وسلام إلى السماء للقاء ربها .

• • •

لم أبك . . ولم أحزن . . فقد أحسست أنه ذهب إلى هناك . . إلى حياة أكثر شفافية ، وأكثر نقاء . . وأحسست أن روحه الطاهرة تطلّ على ، وتنير لى الطريق . إن دمائه التى رأيته كالوسام على صدره ، تشعل حماسى .

وصممت على الانتقام والثأر . . وأى انتقام ، وأى ثأر ، يمكن أن يرضى أبى فى مشواه الأخير . . إلا أن أجعل عمرى كله فداء

لوطنى حتى يتحرر . . . حتى أرى آخر كلب من أولئك المستعمرين
الطغاة ، يسقط أمام عيني . . . ساعتها سوف أحس أن قطرات الدم
الطاهرة التى انبثقت كالنور من صدر أبى لم تذهب سدى . . وساعتها ،
فقط ، سوف أحس أنى سعيدة . . وراضية .

وعرفت طريقى

تطوعت فى فرقة المقاومة الشعبية . . . وكانت المهمة التى أسندها لى
قائد الفرقة ، هى التجسس على الأعداء للتعرف على كل حركاتهم . .
وكل سكناتهم .

وكان علىّ - لكى أقوم بهذه المهمة على خير وجه - أن أحاول ،
أولاً ، التقرب من هؤلاء الأعداء بالتظاهر بأننى مستعدة لأن أنقل
إليهم أخبار المقاومة . . . وعن هذا الطريق ، أستطيع أن أتعرف
على خططهم ، وتحركاتهم ، وأنقلها إلى قائد فرقى .
استرسلت فى تفكير عميق ، حتى اهتديت إلى طريقة . . . رأيت
أنها أقصر الطرق .

كان ذلك عندما لمحت ضابطاً فرنسياً يجلس وحيداً فى حانة من
الحانات . . كان يشرب الخمر فى سعادة المنتصر . . واجتهدت عندما
دخلت إلى الحانة ، ألا أنظر إليه . . وتظاهرت بأننى لم أره إلا عندما
أصبحت بجواره ، وأجبت على ابتسامته لى ، بابتسامة مماثلة شجعتة على
دعوتى لمشاركته جلسته . . وسارعت إلى قبول دعوته . فقد كانت تلك
هى خطتى . .

وجلست والضابط الفرنسى ، نتجاذب الحديث من هنا ، ومن
هناك . . . وعندما لم يعد هناك ما نقوله ، ودعته على موعد فى الساعة
من اليوم التالى . . .

وفى اليوم التالى ، تعمدت أن أذهب متأخرة عن موعدى . . . ذهبت

إليه في الساعة والنصف بدلا من الساعة . . . واعتذرت إليه قائلة .
 - آسفة جداً لتأخرى عن الموعد . . . فقد فتشنى في الطريق
 جندى فرنسى . ظناً منه أنه سوف يجد معى شيئاً . لست أدرى لماذا
 تظنون أن كل الجزائريين يعادونكم ؟ ؟

فاعتدل الضابط الفرنسى فى جلسته ، وسألنى وهو يبتسم فى فرح :
 - ولكن . . . ألا تحبين بلدك ؟ ؟

- بل أحبه . . . ولكنى : فى نفس الوقت : لا أحب أن أموت . . .
 أريد أن أعيش سعيدة بعيداً عن هؤلاء المجانين الذين يقتلون أنفسهم
 ببلاهة .

- يبدو أنك مع الفرنسيين ؟ ؟

- لقد ولدت ، وعشت ، وكبرت على هذه الأرض . . . أنا
 أراها أرضاً فرنسية . ولست أفهم لماذا يسعى الجزائريون إلى الحراب . .
 وإلى قتل أنفسهم ، وقتل الآخرين . .

- يبدو أنك مع الفرنسيين فعلاً . . . ولكن ؟ ؟

- ولكن ماذا . . . ؟ ؟ دعنا بالله من هذا الحديث . . . إننى فقط
 تضايقت من التفتيش . . يجب أن يعرف الفرنسيون أصدقاءهم من
 أعدائهم .

واستجاب الضابط الفرنسى لرغبتى . . ورحنا نتجاذب الحديث
 فى موضوعات كثيرة أخرى لا علاقة لها بالقصة التى كنت قد اختلقها .
 حتى إذا حان موعد افتراقنا افترقنا على موعد آخر . . .

وتكررت اللقاءات بيننا ، وعندها . . لم يتردد الضابط الفرنسى
 فى أن يصارحنى بحبه لى . . . وكان هذا هو طرف الحيط الذى بدأت
 من عنده خطى . . .

أظهرت له أننى ، مثله تماماً ، هائمة بحبه . . . وتماديت فى

تمثيل دور العاشقة حتى استطعت أن أنجح في كسب ثقته . . .
ومستأنه إلى .

و ذات ليلة من ليالى لقائنا . . . وكنا جالسين في نفس الحانة التي
لقيته فيها أول مرة : أخذ الضابط الفرنسي يشرب كميات من الخمر
لم يشربها في أى لقاء مضى . . . لقد شرب كثيراً . . . كثيراً جداً . . .
ثم نظر في ساعته فجأة ، وقال لى :
- لا بد أن أنصرف الآن .

- لماذا ؟ ؟ ؟

فخفص صوته حتى كاد أن يكون همساً : وهو يقول لى :
- لأننا سنهاجم موقعا للجزائريين قريبا من هذا الجبل . . . سوف
نبيدهم يا حبيبى . . . وسوف نلتقى هنا غدا في الساعة لنشرب نخب
إفنائهم .

وعاد الضابط الفرنسي يقول . وهو يتأهب للانصراف :
- أليس شيئا بديعا حقا أننى هنا . الآن . أشرب الخمر . . .
وأن أكون ، بعد قليل ، هناك . . . أشرب من دماء أولئك المتمردين . . .
ثم نلتقى غدا لنشرب الخمر من جديد . إن حياتى كلها شراب فى شراب . .
لقد قالوا لنا هذا عندما أتوا بنا من باريس . . . قالوا لنا : إنكم ذاهبون
فى رحلة خفيفة ، وستجدون هناك أجود أنواع الخمر فى انتظاركم .
وودعنى الضابط الفرنسي . . . وانصرف للقيام بمهمته .

أما أنا . . . فقد أسرع إلى قائد فرقى ، وألقيت إليه بالخبر فى
الوقت المناسب .

وفى اللحظة الحاسمة . . . فى اللحظة التى كان فيها الفرنسيون
يهجمون على موقعنا . . . كنا على أتم الاستعداد لمواجهةهم . رأيناهم وهم
يقتربون . . . ويقتربون . . . وكنت معهم . . . مع فرقى فى مواجهة الأعداء .

وانطلقت نيران مدافعنا تحصد المهاجمين . لقد أخذناهم على عرة .
فلم يفلت منهم عدد يذكر
وكان النصر حليفنا

وفي الموعد الذي كان بيننا . . . في السابعة من مساء اليوم التالي ،
ذهبت إلى هناك . . إلى الحانة التي كنا بها نلتقي . لكنني لم أجده . . .
ووجدت بدلاً منه عدداً من الضباط والجنود الذين كانوا يشربون ويعربدون .
وأشعلت رؤيتي هؤلاء الضباط والجنود . نيران الثأر في صدري .
وأحسست . لحظتها . أن أحداً منهم لا ينبغي أن يعيش . . وفي نفس
اللحظة ، وجدتني ألقى بقبيلة يدوية كانت معي وسط هؤلاء الفرنسيين .
وانفجرت القبيلة محدثة دويماً يصم الآذان . وعندئذ أحسست بسعادة
لا توصف أخذت تغمرني وأنا أرى أشلاء أعداء بلادى تتناثر هنا وهناك .
في حين تحولت الحانة نفسها إلى بركة من الدماء .

وبينما كان عدد آخر من الجنود والضباط الفرنسيين يدخلون إلى
الحانة مهرولين ليروا ماذا حدث . . . كنت أنا أغادرها بأقصى ما أملك
من سرعة . . واندفعت متجهة إلى شارع جانبي حتى أستطيع أن أنجو
بنفسي من بطش أولئك المجرمين . لكن محاولتي لم تفلح . . . فقد
النوت ساقى فجأة : فسقطت على الأرض ، أعاني ألماً شديداً . . .
ولم أفق إلا لأجد نفسي مشدودة الوثاق ، وقد أحاط بي عدد من الجنود
والضباط . . . كان من بينهم ذلك الضابط المخدوع الذي حسبي مع
الفرنسيين . . وضد بلدي . وفجأة وجدته يتجه نحوي في شراسة ووحشية
ظاهرتين . . وأخذ يركلني بقدمه ، ويضربني على وجهي بأقصى ما لديه
من قسوة . وراح يتهددني بكلمات حانقة . . تفيض غضباً وشرأ :

— سأنتقم منك شر انتقام أيها الجزائري اللعينة . . الآن فقط

عرفت من أنت . . وما هو الدور الحقيقي الذي كنت تلعبينه .

— يسعدني هذا أيها الفرنسي المخدوع . . . يسعدني أن أكون مثلاً

لكل جزائري . . وكل جزائرية . وسوف تتحول كل صفة ألقاها منكم
إلى مئات الرصاصات يوجهها إخواني إلى رؤوسكم وصدوركم . . .
أكنت تظني أكره بلدي وأهلي ؟ ؟ !
أما إنك لغبي حقاً ! !

وشارت نائرة الضابط الفرنسي أكثر . . وأكثر . . فركلني
بخدائه في بطني ركلة قوية ألمتني إلى حد أن كادت الدموع تطفر من
عيني . ولكنني حبست دموعي بين جفوني حتى لا أجعلهم يشمتون بي -
وقلت في حماس أغالب به آلامي وضعفي :

- أيها الأندال . . إنني أقول لكم إنكم لن تذوقوا في بلادنا طعاماً
للراحة . . لن تنعموا فيها . . ولن تنعموا بها . إننا لن نتنازل عن حقنا
أبداً حتى ترفرف حمائنا في سلام على أرضنا . . اخرجوا أيها المجرمون
من بلادنا . . إنها أرض عربية . . عربية . . عربية .

ولم يملك الضابط الفرنسي نفسه ، فصرخ في وجهي قائلاً :

- اخرسى

ثم انهال علي . هو ومن كان معه ، ركلا وضرباً . حتى أحسست
كأن روحي قد زهقت . . ولم أشعر إلا وهم يحملوني ليقذفوا بي داخل
سيارة جيب . . لتأتي بي إلى هنا . . إلى هذه الزنزانة الضيقة المظلمة .

° ° °

والآن . . . أراني محتاجة إلى أن أتوقف برهة لأسجل ما أظنه جديراً
بالتسجيل :

فعندما دخلت إلى الزنزانة تقاذفني شعوران ثارا داخل نفسي .
كالأمواج الجاحمة : أنا سعيدة بما حدث . . أم غير سعيدة ؟
وكانت الإجابة :

- إنني سعيدة . . وغير سعيدة . سعيدة لأنني فعلت شيئاً من

أجل بلدى . . وغير سعيدة لأننى حرمت من فرصة مِراسلة النضال
مع زملائى وزميلاتى .

وما كدت أن أنهى من الإجابة عن هذا السؤال ، حتى تقدم منى
أحد الجنود الفرنسيين وأخذ يفك وثاقى ، وفجأة ارتعشت يداه . . فقد
دوى بجوار المكان انفجار قنبلة اهتزت له أبواب الزنزانة وجدرانها اهتزازاً
عنيفاً . وهنا شعرت بالحزن وبالأسى يملآن جوانحى . . . فقد أحسست
أن مكائى ، فى هذه اللحظة ، إنما هو هناك مع زملاء النضال ،
وليس بداخل هذه الزنزانة المعتمة التى تباعد بينى وبينهم . . .
وتمنيت الحياة . . تمنيت أن أعيش حتى اليوم الذى تتطهر فيه أرض
بلادى من دنس المستعمرين الغاصبين ، وطغيانهم ، واستبدادهم !!
وبينما كان الجندى الفرنسى يجذب باب الزنزانة الثقيل ليغلقه على
أنا . . والظلام . . والوحدة - كنت ، من ناحيتى ، أترنم بقول أبى القاسم
القاسم الشابى :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر »

انطلقت . . .

أول يوليو سنة ١٩٦٢ (١٥ سنة)
بمناسبة إعلان استقلال الجزائر . . .
البلد العربي البطل .

انطلقت محطماً قيود الردى . .
ساخراً من شرور العدا
ومضيت من قبرى
أشهد فجر نصرى
... وانطلقت

• • •

ورأيت الأرض الجرداء
تغدو جنات غناء
والزهر الأبيض والأحمر
والنبت الأخضر والأصفر
يهتز ليحيى ذكراى
يهتز ليعلن للعنيا : أن العربى هو الأكبر

• • •

ورأيت عبوس الأقدار
ورأيت شرور الأفكار
ولحت شعوباً مطوبة

تصحولصياح الحرية
تبسم عن صبر وإباء
تعتز بذكرى الشهداء
ترتج لتحى ذكرى
ترتج لتعلن للدنيا : دم الشهداء هو الأزهر .

• • •

. . . وانطلقت
عائداً نحو قبرى
بعد إذ أبصرت فجر نصرى
فوق الشفاه الراضية
فوق السدود العالية
فى مطلع الفجر السعيد
فى الطفل . . فى الأم . . فى الأب . . فى الجيل الجديد
فى مشرق النصر المجيد

إشراقة الوجود

٢١ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة)
تحية لأمها . . في عيد الأم .

سألت البلابل . . . والأغصان . . والزهور
عن سر تلك الألحان والخبور
وسر ذلك العطر الشذى المنشور
إنا نحبي تلك الشمعة التي تحترق لتهب النور
وننحني ، في خشوع ، بلحلال الأمومة . . ولأطهر شعور

• • •

إنه عيدك يا من منحت . . ومنحت . . فرسمت الابتسام على
الشغور

وعلوت بتضحياتك . . حتى سموت على البدور
وكنت دائماً نعم « الحادى » فى طريق الأشواك والصخور
فأوصى الخالق بك لرحمتك . . وحنانك . . النابعين من الصدور
فبا لله . . ماذا يستطيع القلم ، وما عساها أن تقول السطور ؟
فهما كتبت . . . وكتبت . . على مر الأيام والشهور
فلن أستطيع « يا إشراقة الوجود » أن أعبر عما أريد أن أقول .

تحدى . .

(٦ فبراير ١٩٦٣)

يا من هوت بقلبي حيرة مقلتيك
يا من لوعنتي ضمة حاجبيك
لا تتركى الأيام تطبع الأحزان فى عينيك
لا تتركى القلب يئن . . والدموع تجرى
ولا تجعلى الهموم تحنى كتفيك

* * *

اشمخى بهامتك . . وارفعى أهدابك وتحدى
واعرضى عن الهموم . . واصنعى منها التمنى
ولا تستسلمى لليأس . . ومن سواد لونه فرى

* * *

ازرعى الأمل فى قلبك . . وعلى أنغامه غنى
وبالابتسامات أضيئى وجنتيك
فيشع النور منها ليملاً مقلتيك
فتضمك الدنيا بجناحيها وتحنو عليك
إنها أمنية مهجة هزتها حيرة عينيك
فحققى الأمل فىك . . ليعود الصفاء إليها وإليك . .

هارب في السماء . . .

(نشرت في مجلة مدرسة نوتردام
ديزابوتر)

(مايو سنة ١٩٦٤)

بلبل سابع في السموات العاليه
باعثاً أنغامه الشجية الباكيه
متسائلاً عما قد يحمل الغيب إليه
من أحداث مكفهره قد تأتى عليه
فيسرع بضربات جناحيه خائفاً
ومن المصير المجهول يولى هارباً
فيزداد في الارتفاع آملاً . . متوهماً
وقلبه الواهن يدق لاهثاً . . واجفاً

ولكن . . أنى له بالاختفاء
ولا يوجد من مخبأ غير السماء
فهيئات له بالفرار . .
مهما طالت به الأسفار

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية تصدرها دار المعارف منذ عام ١٩٤٣ ،
مساهمة منها في نشر الثقافة والعلوم والمعرفة بين قراء العربية
صدر منها حتى الآن أكثر من ستمائة عدد لكبار الكتاب منها :

■ قاهريات مملوكية

جمال الغيطاني

■ تأملات في كتاب الله

د . ثريا العسيلي

■ نحن أولاد الغجر

أنيس منصور

■ دراسات في ثورة ١٩١٩

د . حسين مؤنس

■ عصفور من الشرق

توفيق الحكيم

■ حياتنا بعد الخمسين

سلامة موسى

■ كندا حلم المهاجرين

مفيد فوزي

■ ذكريات عارية

د . سيد أبو النجا

■ مذكرات ذرة

د . عبد المحسن صالح

■ صراع الأجيال في الأدب المعاصر

د . غالي شكرى

■ في اللغة والأدب

د . ابراهيم مدكور

■ رسائل وأسرار

محمد التابعي

■ قصة الفلسفة

د . مراد وهبة

■ الكعبة على مر العصور

د . على الخربوطلي

■ نماذج من النساء

محمد زكى عبد القادر

■ دعاء

على أمين

القدرات الخفية في عالم الحيوان

د . كمال شرقاوى غزالى

العدد

القادم

رقم الإيداع	١٩٩٦ / ٣٣١٨
الترقيم الدولي	ISBN 977 - 02 - 5245 - X

١ / ٩٥ / ٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)